

الدكتور

عبد الرحمن علي الحجي

دار القلم

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« وفي الأرض آيات للموقنين ❋ وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

دار القلم
دمشق — بيروت

الإدارة : دمشق ـ حلبوني ـ ص. ب ٤٥٢٣ ـ هاتف ٢٢٩١٧٧

فهرس

الموضوع : | الصفحة

الإهداء

إلى أهل الأندلس :

مَنْ قـاد إليهـا وشـاد عليهـا

مِنْ مقيـم وعابـر ، آهـل ومسافر

مجاهداً بانيـاً ومضحيـاً حانيـاً

يرفـع النداء الربـاني سماويـاً

خالداً قويـاً ، وعزيزاً نديّـاً ،

اتوجـه إلى الله جـل جلالـه

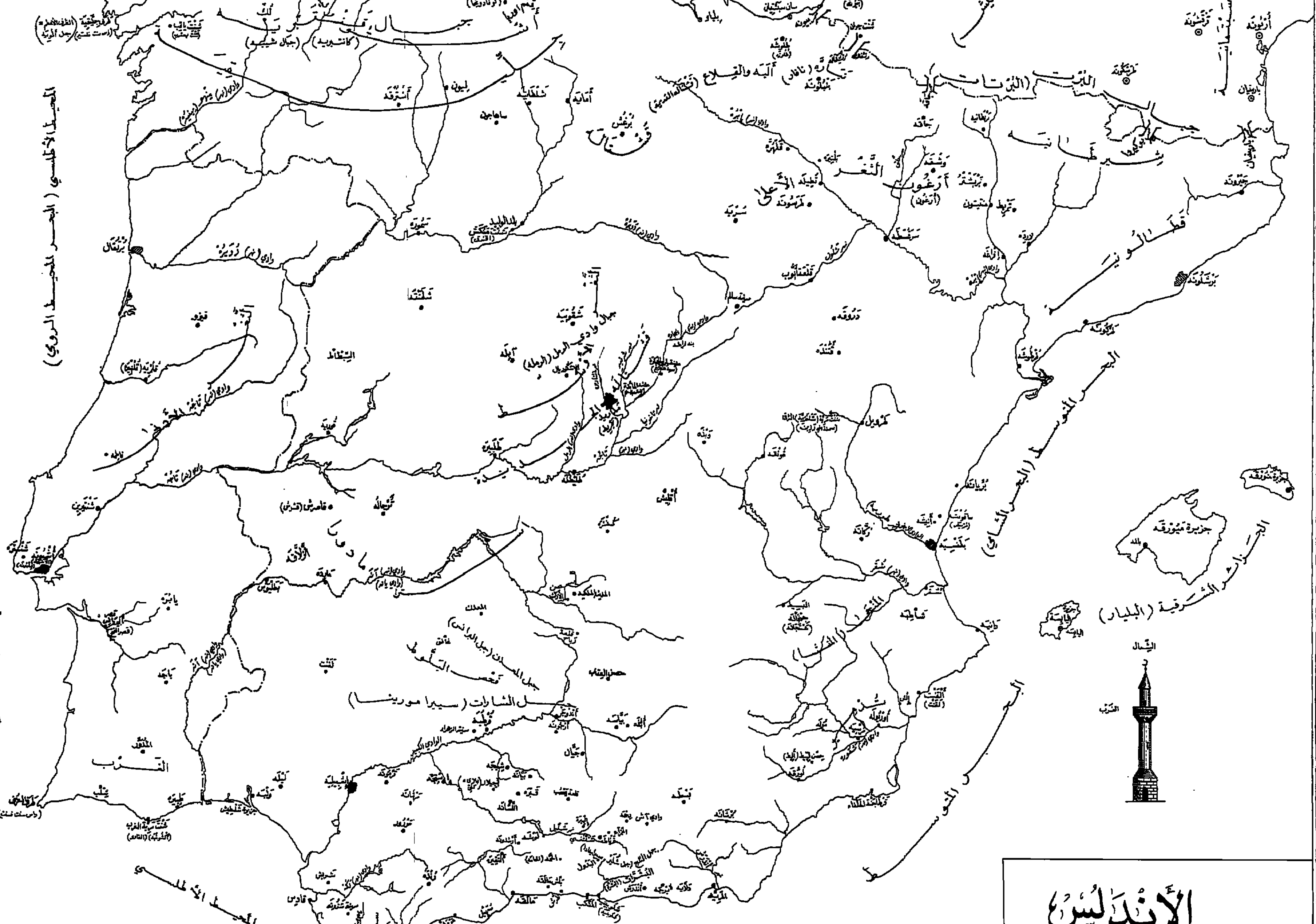
داعيـاً لهم ولنا ولقوافل المؤمنين

مـن كـل جيـل وقبيل

بالأجر والثواب ، ونعمت الجائزة

من الله تعالى يوم الحساب

واهديهم هذا الكتاب .


الأندلس
المحيط الأطلسي (البحر المحيط الرومي)
البحر المتوسط (البحر الشامي)
الجزائر الشرقية (البليار)
جزيرة ميورقة
الشمال
الغرب
جبال الشارات (سيرا مورينا)
الثغر الأعلى
قطالونية
أرغون
البرتات
الغرب
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
بلنسية
سرقسطة
برشلونة
شنترين
لشبونة
بطليوس
ماردة
مرسية
المرية
مالقة
غرناطة
جيان
بياسة
أبدة
سلم
مدينة سالم
قلعة أيوب
تطيلة
طرطوشة
طركونة
دانية
لقنت
شاطبة
قونقة
دروقة
شنتبرية
شقوبية
أبلة
سمورة
ليون
استرقة
ساجاجون
برتقال
قلمرية
يابرة
باجة
شلب
لبلة
نيبرة
قادس
شريش
الجزيرة الخضراء
طريف
رندة
استجة
قبرة
لورقة
وادي آش
بسطة
المنكب
شلوبانية
قنت جبال
ناجرة
وشقة
لاردة
بربشتر
أربونة
قرقشونة
بنبلونة
قلهرة
برغش
قشتالة
أستورقة
مكناسة
المدور
اقليش
قلعة رباح
حصن البطروش
المعدن
غافق
القصر
سانت ياقب (شنت ياقب)

مدريد بين الوصول والرحيل (*)

تكفلت جامعة الإمارات العربية المتحدة الوليدة (١) ، بتوجيه عدة رحلات جامعية إلى عديد من البلدان الأوربية خلال عطلة نصف السنة ، عقب الامتحانات النهائية للفصل الأول • وكانت تسعة وفود ــ غيرمختلطة (٢) ، وإلى جهات متنوعة ــ أربعة منها للطالبات وخمسة للطلاب ، وصحب كل وفد عدد من أعضاء

(*) نشرت هذه المشاهدات والخواطر والانطباعات في جريدة « الاتحاد » في أبو ظبي عاصمة دولة الامارات العربية المتحدة ، على اثنتي عشرة حلقة (اسبوعية) تقريباً ، من ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٨ م وحتى ٢١ تموز (يوليو) ١٩٧٨ م ، تحت عنوان « أيام في الأندلس » . وقد ابقيتها على حالها التي كتبت بها حلقات متتابعة ، وان جمعت سوية في كتاب .

(١) جامعة الامارات العربية المتحدة ــ ومكانها مدينة العين ، وارتأيت تسميتها جامعة العين ــ حديثة النشأة ، ابتدات العام الجامعي الأول ١٣٩٧ ــ ١٣٩٨ هـ (١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ م) ، والعام الحالي ١٣٩٨ ــ ١٣٩٩ هـ (١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ م) ، هو عامها الثاني من عمرها المديد المجيد إن شاء الله تعالى ، جعل الله جل جلاله اعوامها وأحوالها مباركة لتكون جامعة اسلامية ــ كما اريد لها قبلاً واولاً ــ بمناهجها ومسالكها واهتماماتها ، لا مجرد رقم جديد في عدد الجامعات في العالم وعندنا في العالم الاسلامي والعربي ، تعمل على رفع أعلام الاسلام عالية خفاقة رغم الكيد الاثيم المبثوث في ممراتها ، وحماها الله العلي القدير من كل سوء يريده لها الاعداء والعملاء من كل لون وانتماء **((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين))** .

(٢) الأمل ، إن شاء الله تعالى ، أن يتعمق هذا الاتجاه (التعليم المنفرد غير المختلط) في جامعة الامارات في كل مجال فيها والا يكون عدم الاختلاط مرحلياً ؛ وللاسف فلم تنص لائحة الجامعة التنفيذية الصادرة حديثاً على عدم الاختلاط رغم التنبيه عليه !! **((والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لايعلمون))** .

الهيئة التدريسية وهيئة الإشراف الاجتماعي ٠ وكانت كل منها مفيدة على تفاوت في الكم والكيف ورغم تعدد أو تبدد الاتجاه (١) ٠

وقعت هذه الرحلة وأخواتها في النصف الثاني من ربيع النبوي المبارك لهذا العام (١٣٩٨ هـ) وفق شباط (فبراير) (١٩٧٨) ولمدة عشرة أيام (٢) ٠

خرجنا من الطائرة مساء الاثنين ١٣ ربيع النبوي (٢٠ شباط) لنتجه صوب مبنى مطار مدريد ، ولكن مع لهف أو شوق متساو أو متفاوت قديم أو جديد ٠

ركبنا الحافلة المعدة لنمر في شوارع مدريد النظيفة الجميلة الى الفندق ، وفي طريقنا اليـه عرفنا وسمعنا ما يفي ببعض الشوق العجول ٠ اخترقنا شارعاً كبيراً يسمى شـارع الكلا (القلعة) ونحن نرى بوابة القلعة ، فكانت تلك استثـارة للشوق الملهوف للتعرف على ما لنا هناك ٠

وإذا مـدريد ليست إلا مجريط الأندلس أنشأهـا المسلمون ابتـداءً في القرن الثالث الهجري فوق أرض مرتفعة رابية تجمع بين متطلبات السلم والحرب ٠ كانت حصناً ثغرياً وبلداً يضم سوقاً عامرة ومسجداً جامعاً حافلاً بالعلم فكان عدد من أهله حملوا لقب المجريطي ، نسبة إلى مجريط (مدريد) ، العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون ٠ وهنا تداخل الرأس فِكَر وتداعب النفس عبر ، إذ ليس منا

---

(١) المرجو إعادة النظر في هذه الرحـلات وتكاليفها العالية لتؤدي من الفوائـد الأصيلة الجليلة ما يفوق او يكافىء الانفاق لها من الجهد والوقت والمال ، والا تغدو وسيلة لفتح نوافذ متغبة مغربة ، أو تكون أنبوبة لتمرير افانين حياة ملوثة وأجوائها المتهافتة وتجسير الأخذ من ترهاتها بأي مقدار لتصبح تياراً ثم إعصاراً ، وعندها فيغدو الغاؤها أفضل من ابقائها وانفاق أموالها في أمور أنفع ودروب أرضى لله تعالى جـل وعلا . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢) كان لكل وفد وجهة ، ومتجه هـذا الوفد الذي يدور الوصف عن زيارته نحو اسبانيا أو ـ إن شاء أحد القول ـ إلى الأندلس ، واحدة من البلدان التي اتجهت اليها الطالبات ، لكنه كان من اهمها وانفعها ، إن شاء الله تعالى ، أو منها قاطبة ، والله الموفق لما يرضاه بمنه وكرمه وعونه ولطفه ، انه على ما يشاء قدير .

إلا وقرأ ــ قليلاً أو كثيراً ــ عن بلادنا الغابرة العزيزة،وغدت الآن قطعة من حضارتنا الاسلامية الزاهرة ، فلنا فيها ذكريات ليست مجرد ذكريات ، ومن يدري وقد تزيد !

وحين تقرأ في كتب مؤلفينا عموماً ومؤرخينا خصوصاً عن تلك البقعة مــن ذلك العالم الاسلامي السامي المترامي في جناحه الغربي ، وهو الآن حزين كسير ، يملؤك وتملؤه بالأنين والحنين ، وتدعو الله تعالى تبديل الحال ، تجد هؤلاء وأولئك يقدمون لك الشروح ، ومن عاش منهم مأساة تراه يدعو الله الكبير المتعال بأن يرد تلك الديار إلى الاسلام • تجد ذلك بوضوح في كتاب نفح الطيب للشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني دفين القاهرة (١٠٤١ هـ) • ويعتبر هذا الكتاب دائرة معارف أندلسية • وهذا المؤلَّف ذو الأجزاء العشرة أو دونها يسير بك في ثنايا وحنايا ميادين الأندلس أو الجزيرة الأندلسية (اسبانيا والبرتغال) بألوانها الزاهية الباهية ومفاخرها الجهادية البارعة الفارعة ، والانسانية الوادعة الهانئة والعلميــة الزاهرة الباهرة والعمرانية الذاهبة والقائمة الساهمة من الفصل الأول في تلك القصة الفريدة المجيدة حتى ثامن فصل منها باعتبار عمر الفصل الواحد قرناً كامــلاً أو يزيد • وليس من الضروري أن يكون الفصــل الثامن آخر الفصــول في هاتيك القصة • والفصل الثامن حاد الطعم مثير للحزن بمأساته وبالاعجاب لثباته وبأغرب الاستغراب لأفانين العــذاب الذي لقيه المسلمون البنــاة على يد الجهلة المتوحشين بأفعال أولى أن يبرأ منها كل دين •

وهذه المأساة الملحمية أو الملحمة المأساوية ذات القرون الطويلة والتي كانت محاكم التفتيش في اسبانيا أحد أعلامها أو مفاخرها • ولقد احتوى المغرب الكبير ولا سيما أقصــاه الناجين منهم فراراً أو اندحاراً مضمداً الجراح بمحبة يغذيهــا الايمان القلبي بتلك الرابطة الاسلامية التي تخطت فيما مضى من القرون مياه مضيق جبل طارق لتمنع وتدفع تجمعات البغي والعدوان وتكبح أو تمسح آثار الهــدم والطغيان • ولا بد أنه غير ما قلم حكيم شاهد عيان أو قريب عهد بمن شهد كتب أو استكتب تلك الأخبار • لكن كثيراً منهــا ضاع وبقي بعضهــا ، نعرف منها كتاب

« نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » لمؤلف مجهول وكتاباً آخر نقل المقري في « نفحه » شذرات منه وعرفنا خطيته الموجودة في المكتبة الملكية في المغرب « جنة الرضا في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم .

لقي المسلمون في الأندلس على أيدي الصليبيين من القسوة التي فاقت الوحشية ما يندر العثور على نظير له في التاريخ القديم دون الحديث . فأتى عليهم الفناء . فلا تعجب إذا وجدت في الأندلس اليوم أشباه مسلمين أو لم تجد فيها مسلماً ، فلقد أبيدوا وزيدوا إبادة . وكاد أن يحل ذلك بكل ما خلفوه ماثلاً في غير الانسان لولا عناية الله وحكمته ليبقى القليل ، وكم فيه من دليل .

بقيت بعض الآثار العمرانية والعلمية وقمنا بزيارة أهمها ورأينا بعض الآثار البشرية واللغوية التي لاحظنا شيئاً منها . فكم منا في مخيلته خواطر حرى شملت كل هذه الأمور أو بعضها أو تناولت غيرها ونحن نخترق شوارع مجريط نحو الفندق نحمل أتعاب يوم سفر طويل يمتد بين العين من أرض الخليج والأندلس على المحيط أو درة البحر المحيط .

وصلنا الفندق ونمنا ليلتنا الأولى لنمضي بعدها في جو إلى البرد أقرب ـ اشتهاه كلنا أو لا يخلو فينا من رغب تجربته ـ صباحاً جميلاً نخطو في شوارع مدريد والتعرف على أهم معالمها العمرانية ومتنزهاتها المرهفة الندية ، إحدى موروثاتها الأندلسية العريقة ، التي لم يبق من مجريطها إلا أقل من القليل .

ويعتبر الريترو وبحيرتها الصناعية من أجمل متنزهات مدريد الحديثة . فوصلناها في جو جميل يبعث في الجسم النشاط وفي النفس الحركة يدفع نسيمها البارد إلى اغتنام الفرصة للرؤية والاطلاع والتقاط صور في تلك المناظر الجميلة الزاهية الرائعة . وتناثر موكبنا تجمعات صغيرة وكبيرة مشهرة آلات التصوير متراكضين هنا وهناك بحثاً عن أجمل منظر نفاضل بين جمالها راغبين في احتوائها جميعاً . وحملنا على تركها لنزور ركضاً بالحافلة المدينة الجامعية ولنمر ثم نزور ـ فيما بعد ـ القصر الملكي في غربي مدريد ، مشرفاً على نهر منثنارس أحد روافد نهر التاجه ، والذي بني مكان القلعة الاسلامية القديمة وربما المسجد الجامع

قريباً منه حيث هدم وبنيت مكانه كنيسة ، كما هو معتاد في التاريخ الصليبي ، شرقاً وغرباً •

والحق أن مدريد تعتبر أجمل وأنظف وأنظم وأخضر عاصمة أوربية أو واحدة من تلك ، يغريك ذلك بتجديد إجازتك لإطالة الاقامة ، مستروحاً لنفسك سارحاً بخيالك وفكرك ومتطهراً من رواسب السوء ومتخففاً من أوزار الآثام التي يرقد في جحورها الكثير من الذاهبين ، ولك متسع وأي متسع •

وفي صباح اليوم التالي كنا على موعد مع الحافلة المخصصة لنا لننتقل إلى الجنوب حيث نمر بقرطبة الحاضرة الأندلسية الشهيرة • فاخترقنا إليها طريقاً جميلاً لا تفارقنا الأرض الخضراء بين سهل وجبل تخترقها الوديان وتزينها الأشجار الخضر ولا سيما الزيتون والبرتقال ببساتينه الواسعة ، وكذا الأعناب ، وهي مع غيرها إحدى فصائل الغروس الاسلامية في أرض الشهد والطيب من كل لون وطعم وطراز •

ثم مالبثنا في عصر نفس اليوم (الاربعاء) ان وصلنا قرطبة لننزل الى طرقاتها التي كانت مضيئة بالاسلام ومنتعشة بحضارته ومنتشية بخير نهرها أو واديها الكبير • وتوقفنا عند أحد دروبها الذي عرفناه أو توقعناه فوجدناه قريباً حبيباً وكأنه كان ضائعاً فلقيناه ، توقفنا في درب أحد جانبيه حائط المسجد الكبير مسجد قرطبة الجامع • لكن المعالم الاسلامية التي هفت إليها القلوب يسحبها الأسى المدهش يخلصها من نشوة الفرح بهذا اللقاء العزيز حزناً على انحسار الاسلام من هناك ، وان هبت ريح لينة حملت الى النفس عبيراً طيباً سرعان ما اختلط في زحمة المأساة حتى لا تكاد تحس منه إلا أخف الدبيب ، تثقله وطأة المأساة الغائرة ، تحمل أحزان القرون الطويلة البطيئة •

وربما أفقنا من هذه المحاكاة امام رؤية المسجد المكلوم والقصر المنكوب مغلقين في ذلك المساء الكئيب • وكدنا تنفوح بأيدينا نضعها على حائط المسجد القرطبي القديم الجديد تبركاً أو تملكاً ونحن نهتف « الله أكبر » مرة أو أكثر ، كما هتف بها الفاتحون المسلمون سنة ٩٢ هـ ، بقيادة مغيث الرومي الذي ولاه طارق ابن زياد ــ قائد جيش فتح الاندلس الأول ــ على سرية فتح قرطبة •

ثم ارتدت جموعنا الى القصر الخليفي فوجدناه مغلقاً • وكأن اللهفة أبت إلا أن ترى شيئـاً قبل الرحيـل فذهبت لتتنفس فتلتمس بعض الشبع في قنطـرة الوادي الكبير • نهر الذكريات والخير العميم الذي سنلقاه في امتداده الطويل مرة أخرى مخترقاً اشبيلية حيث يقع في المحيط الأطلسي •

اتجهنا صوب هذه القنطرة التاريخية العظيمة التي تحدث عنها العديد من المؤرخين والجغرافيين المسلمين كما تغنى بها الشعراء باعتبارها واحدة من مفاخر قرطبة • وكان والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٢ هـ) قد أنشأها بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز على أنقاض القنطرة الرومانية المتهدمة ، لتصـل قرطبة بجنوبي الأندلس • وصلنا أولها قبالة الجامع ونحن تتحدر من ارتفاع سرنا بعدها بجانب النهر وقد شال ماؤه لقلة المطر ، حتى وصلنا بداية القنطرة ، واذا بنا نواجه قطعة كتب عليها بالاسبانية « القنطرة الرومانية » وهو تحريف ظاهر واعتداء سافر على الحقائق التاريخية لأنهـا قنطرة أندلسية إسلامية • وعرفت مجموعتنـا ذلك وأدركته ولعلها أو البعض منهـا فلسف أسبابه • وفي ذلك دليل على غمط الحقيقة عمداً ورسمياً وعلناً • اذا كان هذا في الأمور العادية التي لا تتصل بالمواقف فكيف في مجريات الاحداث وبيان الأمور وسرد الوقائع وشرح المواقف لا شك أنه الغمط الكامل والتحريف المتعمد والتزوير الأكيد • ولا يفلت من هذا أي مستوى • كما يلقنه أدلاء السياحة ، مثلما سيظهر لنا في جولتنا هذه •

سرنا نخطو فوق القنطرة تتحسس بأقدامنا لو استطعنا ــ كما هو الحال في طرقات المدينة وغيرها من المدن الأندلسية ــ آثار أقدام المسلمين المجاهدين والعلماء العاملين وعموم أهل الأندلس الذاهبين والآيبين ، حتى وصلنا طرفها الآخر فعبرنا النهر ، نتذاكر بعض ما نعرفه عن هذه القنطرة التي نرى فيها صدق ودقة أوصاف الجغرافيين المسلمين لها أمثال الإدريسي الذي زار قرطبة وكتب عنها وعن مسجدها وقنطرتها فاعتبرها من أعظم آثار الأندلس وأعجبها • وهي حقاً كذلك حيث ما زالت منذ أن أقامها السمح بن مالك الخولاني رحمه الله الذي استشهد مجاهداً في جنوب

فرنسا في يوم عرفة ! منذ ما يقرب من ١٣ قرناً وعلى هذا النهر الفياض الذي يبلغ ماؤه أحياناً أعناق أقواسها السبعة عشر رغم ارتفاعها ، وإن كانت قد رممت وأصلحت غير مرة فهي تعتبر من أقدم المآثر العمرانية الأندلسية الباقية ، فهي باهرة .

عدنا بعدها نتملى مياه النهر ومناظره من فوق القنطرة العتيدة صوب الحافلة بجوار المسجد الجامع الذي زادنا غلق بابه شوقاً إلى رؤياه واسداء تحية الأجيـال، أجياله المعمرين والزائرين ونحن منهم نسعى في خطاهم . ألا ما أروع جيل المسجد.

وتناولت أيدينا متلاحقين باب الحافلة لنمضي نحو الجنوب ، ولكن مؤملين أن لا بد من زيارة مسجد قرطبة الجامع خلال العودة اليه من مدن الجنوب الأندلسي.

فصدرنا عن الورد منذ الابتداء لنتجه الى اشبيلية حيث بتنا ليلتنا فيها بانتظار صبح جديد يطلعنا على كل ما هو جديد .



اشبيلية نفحة أندلسيّة عطرة

لعل بعض ما عرض في الحلقة السابقة من (أيام الأندلس) ما يزال ماثلاً أو حاضراً أمام العين أو في النفس وعلى الأقل في الذاكرة ، وذلك خلال جولتنا في مدريد وزيارتنا لبعض معالمها وانتقالنا إلى قرطبة التي لم نرتو منها ، توجهنا لزيارة اشبيلية ؛ موضوع حلقة اليوم .

ودعنا قرطبة ومسجدها الجامع الحزين وداع العائد ، متجهين نحو اشبيلية التي وصلناها ليلاً .

مررنا في طريقنا إليها بأرض خضراء مزدهرة شملت سهولها وجبالها خلال المسافة بينهما لحوالي ١٥٠ كم ، تغطي مساحات على الجانبين غابات الزيتون والبرتقال ومررنا في طريقنا بأكثر من مدينة أندلسية . وان كنا للاسف ـ لضيق الوقت ـ لم نستطع النزول فيها ، فإن رحلة إلى الأندلس تحتاج من الوقت غير قليل وإلا فإن الزيارة ستتم على حساب النشوة والمتعة والرغبة النفسية القوية التي لا تطيق قطع هذا اللقاء قبل الارتواء وعلى الأقل قبل الوصول الى الامتلاء . كان من تلك المدن الأندلسية التي مررنا بها مدينة إستجة التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من طابعها الأندلسي في المباني ذات اللون الأبيض ، حتى لتظن أنك في مدينة تقترب من الزي الاسلامي في عمارتها وتخطيطها ، وان كانت المعالم الاسلامية البارزة قد ابيدت ، كما جرى لمسجدها الجامع الذي هدم لتقوم مكانه كنيسة ، وهي عادة ألفناها في التاريخ الأندلسي !! ويتم ذلك رغم ما بين المسلمين وحكام اسبانيا الصليبيين ومن معهم من عهود ومواثيق ؛ فهم إما أن يهدموا المسجد لتقوم مكانه كنيسة كما جرى في إستجة هذه وكما رأيناه في مدريد (مجريط) وكما سنراه في إشبيلية وغيرها ، أو أن يحول المسجد نفسه الى كنيسة كما جرى في طليطلة والى حد ما في قرطبة كما سيأتي بيانه .

اخترقنا إسْتِجَّة صوب قَرْمونَه ــ مدينة أندلسية أخرى ــ لنصل إلى إشبيلية ليلاً فنزلنا في إحدى فنادقها تنفض عنا آثار السفر والتعب ونستعيد نشاطنا ، فتناولنا عشاءً نا ومنا من نال التعب منه منالاً فهرع إلى النوم علاجاً مفضلاً مكتفياً به ومستغنياً عن غيره •

تقع إشبيلية ــ المدينة الأندلسية ــ على الوادي الكبير الى غربي الأندلس وان كان على هذا الوادي ان يسير بعدها مئة كيلو متر ليلتقي بالمحيط الأطلسي • وكنا قد علمنا أن قرطبة تشارك إشبيلية في الدلال بهذا الوادي والاطلال عليه والنظر اليه لكن قرطبة أسبق من إشبيلية في هذا المجال وأصدر ، وإن تسابقتا رتوعاً في خيره •

كانت إشبيلية ــ أيام الأندلس ، ولخمسة قرون ونصف ــ صَدْرَ حواضره وعروس قواعده • افتتحها الجيش الاسلامي بقيادة موسى بن نُصَيْر أوائل سنة ٩٤ هـ • فكانت في الاسلام مركز علم وفضل وجهاد وموئل عمران ودار الشجعان الذين جاهدوا على الدوام ، حتى أيام الطوائف حيث غدت قاعدة مملكة بني عباد ــ رغم مواطن ضعف وبوادر خوف ــ شامخة مناراتها لامعة أضواؤها متسعة خضراؤها يانعة حقول اعنابها وغابات زيتونها لا سيما منطقة الشرف منها •فاستمرت قاعدة أيام المرابطين أبطال معركة الزَلاقَة (٤٧٩ هـ) والمجاهدين من أبطال معركة الأَرَك (٥٩١ هـ) أيام الموحدين حتى سقوطها سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) أرملة عروساً حيث تجرَّع سكانها المسلمون ــ وقد يزيدون على نصف مليون ، ضعف سكانها اليوم ــ صنوف الأذى والأسى ، كان الترحيل من بينها ولعله من بعض الوجوه ليس آخر ألوانها ولا أشقى أحزانها •

ما تزال إشبيلية الحاضرة تحتفظ بكثير من جمالها بما تملؤها من الساحات الواسعة والحدائق والمتنزهات البارعة « ونهرها العذب فياض وملآن » كما وصفها الرُنْدي (٦٨٤ هـ) أحد شعراء الوصف والرثاء في الأندلس ، وتحس بإشعاعها على النفس وأنت تتجول فيها تلحظه بغير صعوبة نفحات الأندلس الكئيبة في الكثير من مرافقها وأحيائها كما ترى بقايا قليلة من الآثار الاسلامية في تلك الجزيرة لاسيما القصر وبقايا مسجدها الجامع وبعض آخر من متناثر الآثار •

بتنا ليلتنا ننتظر الصباح متشوقين • فغدونا على بعض الآثار الاسلامية بصحبة الدليل السياحي وهي قليل من كثير ، ومع ذلك كانت معبرة مفصحة رغم التشويه الذي أثقل جمالها •

ذهبنا أولاً الى قصرها الاسلامي الذي تطلق عليه كلمة القصر بنطق اسباني وعلى جميع القصور الأندلسية المتبقية في اسبانيا • وعندما تجتاز مدخل القصر الى ساحته أو باحته الكبرى فإنك ولا شك ستبهر وأنت محاط بالأبهاء الجميلة والزخارف البارعة التي تطفح عراقة الفن الرفيع والجمال البديع والذوق الأنيق حتى ليكاد كل شيء فيه يشغلك عن الآخر •

يتكون هذا القصر الاشبيلي الأندلسي من طابقين ، لا يزال ثانيهما منتجعاً للملوك الاسبان • ولولا بعض الترميمات والإضافات المشوهة التي أجريت في الطابق الأول لصفت له أندلسيته الناصعة في فنيته المعمارية المتميزة • أما الثاني فهو بناء اسباني تقليداً للفن الأندلسي ، وشتان بينهما ، قام به المدجنون ، وهم المسلمون الذين بقوا تحت الحكم النصراني في اسبانيا •

يضم الطابق الأول عدة أبهاء أوقاعات رحبة واسعة تحتفظ باسمائها الأندلسية: بهو العدل وبهو الملوك الاندلسيين وبهو السفراء ابدعها وأجملها • وما زالت هذه الأبهاء تدعوك لإيثارها بالدهشة والاهتمام تتفحص زخارفها الملونة الزاهية وتتساءل عن مواطن جمالها المتناسق المعبر رغم تجرعها الغصص المتلون ، حتى لكأنك تقرأ حزنها الباكي أو تقرأ عليك مأساتها البادية ، حكاية متصلة من الأوصاب والأوجاع بعد ترحيلها الأهل والأحباب وانتهاء حياة العز والثراء من كل لون خَيِّر ، فبدا جمالها وحيوتها مثقلة بكآبة لا تخلو من إباء وبالقيود كبلتها الأحقاد • ولو استنطقتها لأوقفتك أو عرفتك ولندبتك للانقاذ معبرة عن انتظارها ليوم تنشق أرضها عن أبنائها البررة الفرسان •

وإذا ما تركت أو ودعت القصر تجر قدماً خجلة تتحفز للأمل أو لاستلام طريق قصير يقودك الى بقايا المسجد المحزون أو المدفون ، فاذا بك تلقاه بعد اجتياز ساحة مزدحمة ، تفيق حماية لنفسك من أذى فيه لتجد التنافر المركب : كنيسة عظمى

تلي في فخامتها كنيسة القديس بطرس في روما ، وقد استمر العمل فيها أكثر من قرن ونصف . أقيمت هذه الكنيسة في موضع مسجد إشبيلية الكبير الجامع بعد هدمه . وقد ذكر لنا الدليل السياحي الذي كان يرافقنا في هذه الجولة ان المسجد الجامع هــذا تهدم نتيجة زلزال ، وهي معلومــات خاطئة درسها أو تم تقديمها لــه من الدورات السياحية التي يجب عليه وعلى أمثاله دخولها ، إذ عليه أن ينجح في الامتحان المطلوب ليكون دليلاً سياحياً مجازاً !! فصححت له مــن أن المسجد الجامع هدِّم تهديماً بالمعاول بعد سقوط إشبيلية . وجاءت مناسبة أخرى ليتأكد له ذلك عيانــاً وبرهاناً حيث وصلنا في جولتنا الى فناء المسجد أو صحنــه الــذي ما تزال بعض اجزائه باقية على شيء من حالها حتى اليوم ولم تتهدم بالزلزال المزعوم ، في حين يتهدم المسجد بالزلزال قبل أكثر من سبعة قرون ، فسكت !

وصحن المسجد مع ما بقي من عقوده وما غرس من برتقاله ينبيك عن بعض ما يرويك ولا يكاد . وفي أحد أركانه ، إذا رفعت رأسك لترى المئذنة الموحِّدية التي تسمى الصومعة ـــ وتسمى الآن بالاسبانية لا خير لدا ـــ التي يزيد ارتفاعها على تسعين متراً ورغم قطف اعلاها ليبنى محله برج أجراس الكنيسة ، فانها ما تزال تفصح لك عن أندلسيتها ، تصارع بجمالها ورونقها البارع الأصالة تغيرات الانسان وكوارث الزمان ، تسمو شامخة مركزاً لإشبيلية وأمّاً ترتبط بهــا أحياؤها وإليهــا تؤول ، عنوان الارتفاع ومكمن النــداء تردده الارجاء ، يتماوج عــلى صفحات الوادي الكبير وزروعه وحقوله في مرتفعاته وسهوله غير بعيد . وهو يزهو بجماله ويروي في سطوره المتجددة حكايات السلف على شطآنه الندية وحقوله الخضراء البهية تحتضن أخبارهم ، فكأنه يدعوك لتروى من زلاله وتتزود منه بالأنباء ولتشهد على شاطئه برج الذهب يندب مَنْ ذهب ، أنيساً رقيباً وحامياً مكروباً فهو ما يزال مقيماً بحاله يشعرك بولائه ويشير بك إلى المنارة موطن الزعامة المنكوبة وموئل العزة المسلوبة حيث قطف الرأس منها وقطع النداء عنها واختفى الأحيــاء ، حتى لكأنها تستنطقك بصموتها لائذة بك لتسمعها ندى الألحان في حلاوة الايمان وكأنك تسمع أو تستعيد « الله اكبر » ابتداء الأذان .

ثم جالت بنا الحافلة في شوارع اشبيلية الواسعة وميادينها الرحبة المتسعة تذكرك بمواصفاتها القديمة • كان منها ميدان اسبانيا الرحيب ، وهذه عادة ألفناها في اسبانيا أن يطلق اسمها على اكبر ميدان في عديد من مدنها • وعبرنا في تجولنا جسراً على الوادي الكبير الذي بقي ليصل المحيط منتهى رحلته الطويلة التي مر بها في نجاد ووهاد ومدن عديدة كان منها قرطبة أن يقطع مئة كيلو متر ، ثم دخلنا حديقة كبيرة شاسعة •

وتشتهر إشبيلية كذلك بالحدائق الواسعة الفارهة الزاهية • وتوقفنا لنمتلك صوراً عن المناظر البهية ، وعندها تتتابع أصوات المصورات للاحتفاظ بها ذكريات تشدنا إلى تلك الأمكنة في زيارتنا التاريخية ، وما كدنا نشبع منها حتى تركنا المكان، بحثاً عن مطعم لا يحرمنا من متعة النهر ولا يحجب عنا جرية مائه ، فكان • وكم بدا المطر جميلاً ساعتها وهو يداعب تماوج النهر المتدفق وتدغدغ قطراته دفقاته ، في منظر حبيب نقرأ فيه نِعَم الله على الانسان متمثلة في كل الوان الارتواء ، وقام المصلون منا لنقترب سوية مغترفين العبر واقفين بين يدي الله تعالى شاكرين عابدين فقد حان موعد صلاة الظهر كي لاتفوت فأديناها واسترحنا بها واطمأننا ، فكان ذلك ارتواء وأي ارتواء بل وأساس كل ارتواء •

وبعد التزود بكل تلك المتع تركنا صفحة النهر للاسترواح في نزلنا كيما نستأنف جولة المساء ولكن في اسواق اشبيلية العامرة ومحلاتها الفاخرة بمشتهيات الملابس والزينة لا سيما احتياجات النساء ، ومتى يكتفين منها أو يكففن عنها ؟!

وهكذا انقضى ذلك المساء فعدنا نستريح من عنائه لنستأنف صباح ليلتها الرحلة الى حيث رسم للحافلة أن تسير وحيث يحلو المسير ، في أرضنا الخضراء أرض الشهداء والعلماء وأحد مواطن الأحياء من بلدان عالمنا الاسلامي الواسع الأرجاء الغزير العطاء ولكن بحسن البلاء •

غرناطة الحمراء ذات الرحم

لعلك أيها القارىء الكريم ممن تابع الحلقتين الماضيتين أو واحدة منهما لهذه الأيام الاندلسية التي قضاها في أجواء الأندلس وفد جامعة الامارات العربية المتحدة في عطلة نصف السنة الماضية ، وإن استحضارك لمجملها يغني عن تذكيرك بخطوطها ، حيث وصلنا مدريد وطفنا في ارجائها وتملينا مناظرها واستمتعنا بجوها كما استعملنا مظلاتنا في دفع مياه أمطارها ثم انتقلنا إلى قرطبة مروراً بالغريب القريب الثاوي هناك والأسير المحزون الفريد البعيد مسجدها الجامع الحبيب لنعود اليه بعد زيارة اشبيلية بستان الربيع ، جفت نضارتها وشحبت ألوانها تتعشق المطر وتنهض متثاقلة للقيا الأبناء بأمل الخيال وحتى يكون ذاك حقيقة ، ثم نمضي الى غرناطة الحمراء .

ولما بتنا ليلتنا الثانية في رحاب هذه المدينة (اشبيلية) فاصبحنا يوم الجمعة ١٧ ربيع النبوي (١٩٧٨/٢/٢٣) تتهيأ للرحيل . وبعد جولات خفيفة غير رتيبة امتلأت مقاعد الحافلة بمجموعاتنا ، مكتملة ومتنادية للمسير في وقت من صباح جمعة في موقع غير بعيد عن المسجد الكبير الذي رددت أصداؤه نداء الله وقرآنه وتعاليم الاسلام وهدي رسول الله ﷺ مما قد يعزف الإنسان أو يعتبره منها أجمل الألحان على طول الزمان فامتلأت أرجاؤه كما عاشت عليه وفيه وله من كل بلد أحياؤه . ورحلنا في وقت كان قبل قرون يتهيأ المسلمون فيه من وقت ذلك اليوم متجهين نحو مسجد اشبيلية يؤمون حرمه وصحنه ملتقين بالحب متناقشين في الشؤون مستنيرين بالعلم متطهرين بالتقوى متعاملين بالبذل باحثين في الأمر يطرحون الخطر ويستمدون الحل ويؤثرون البذل . فانطلقت بنا الحافلة مثلما أو غير ما كانت جموعهم البيضاء وفرسانهم الرشيقة الشقراء تنطلق للجهاد وتجوب المهاد بجسمها وحسها ، فانطلقنا بالحس الحسير نعود في طريق دائري طويل نقصد

غرناطة الحمراء يمتد إلى منتهاه في غرناطة عن طريق مالقة التي تمتد على البحر المتوسط تحتضنه ويحتضنها حيث نزلناها عصر ذلك اليوم وشممنا عبير حدائقها الجميلة الطابع الأندلسي الدائم ورثها الإسبان ، وقد زينت شوارعها النخيل الباسقة والاشجار السامقة ، بعض ما جلبه المسلمون من غروس وكذا الزيتون والاعناب والبرتقال والرمان •

ومالقة مثل قرطبة وغرناطة وغيرها من المدن التي فتحتها سرايا طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ حيث ارسلها من مدينة إستجة • وكان أهم ما شاهدنا في مالقة قصراً هو قصبتها (قصر الحاكم ودواوينه والقلعة العسكرية) الثاوية فوق مرتفع عال جميل غير بعيد من الساحل ، ترى من أعلاه البحر نافذاً ببصرك إلى داخله على امتداد •

وتتابعت مجموعتنا دالفين في خط متقطع متناثر طول الطريق قاصدين القصبة • ولم نكن وحدنا ، فكالعادة عند هذه الآثار كثيرة القصاد دوماً وعلى مدار السنة تستقبل القادمين من آفاق متسعة من العالم وأقلهم المسلمون ، يأتون اليها بوفرة وكثرة ، وهي لا تفتأ عن استقبالهم مضيافة مرحبة كأهلها بكل قادم يقصدها أو يرغب بالاطلاع عليها أو التعرف على ما فيها وما وراءها متفهماً ارتباطها • فارتقيناها إلى اعلاها خلال سلم صخري منحدر • وتكاد الحدائق والاشجار تغطي هذه القصبة عنيفة الأصخار مزدحمة الأغصان وتحجب كثيراً مما بقي من أبنيتها التي تهدم منها الكثير • ولقد كان أكثر زهواً وزهاءً أيامها مدللة ، رافلة بخضرتها الغزيرة •

وتكاثفت أو تناثرت مجموعتنا في أكثر من موضع من أعلى القصبة لتستمتع من هذا المكان نحو كل ما يحيط بها من مناظر برية وبحرية تزيدنا هياماً وهي ساهمة وادعة أو نائمة ، سرت أفكارنا مع امتدادها عبر الزمان والمكان ، تستمع حديث النفس وتستمتع به خيالاً وآمالاً وربما مآلاً • وكان منظراً أو مظهراً خير مجال للصور فتكاثرت نقراتها تفترص أوضاع ساعتها وتلتقط أنفاسها لتعود إلى مثلها • ورغم الاستعجال لم نحرم من التجوال في خرائبها التي بعضها مرمم مضمم • وتنادينا بالتعجيل على الرحيل ، وتحدرنا تتذاكر العبر سالكين سبيل الارتقاء مستقلين مدة البقاء ، ولكنه الرحيل نحو الهدف الأصيل الى غرناطة الحمراء وكفى •

وصلنا غرناطة ليلاً لنحل في الفندق القريب من حمرائها لنبيت بجوارها ، وما أقصر الطريق اليها لولا الليل وظلمته ، فليس بيننا وبين حدائقها إلا ان ترفع بصرك وليس بيننا وبين مبانيها غير رمية سهم أو تزيد ، ولكن لابد من الراحة والنوم ، وتلك مهمة الليل ولها خلقه الله جلّت قدرته ، رحمةً ونعمة وعبرة .

وأصبحنا واصبح الملك لله على نهار يوم السبت ١٨ ربيع النبوي (١٩٧٨/٢/٢٥) شديد المطر نقف امام الحمراء أو نحن جزء منها أو نمت بصلة الرحم لها . وكما يحتار الواصف من أين يبدأ كذلك يفعل الزائر ، ولكن كانت الزيارة منظمة والتحق بنا الدليل السياحي ليقوم كما رسم له ان يبدأ مع كل أحد أو وفد .

والحمراء ــ المدينة السلطانية ــ التي ضمت دواوين الدولة وسكنى الخاصة فهي مدينة الدولة . فاشتهرت بسعتها وروعة فنها المعماري وبراعة هندستها وجمال زخارفها وألوانها وامتداد حدائقها ، ابتناها بنو الأحمر أيام مملكة غرناطة التي قامت أواسط القرن السابع الهجري ، وبنيت الحمراء على رابية قريبة من مدينة غرناطة عاصمة المملكة التي حملت اسمها طول عمرها الزائد على القرنين ونصف .

وتعني غرناطة بالاسبانية :الرمانة (كما تجدها في القاموس الاسباني اليوم) التي ربما بسببها كان اسم الحمراء نسبة إلى حمرتها والتي ربما لولا هذه التسمية لحسن وأمكن تسميتها بالخضراء ، لسعة حدائقها ومروجها الخضراء الفيحاء الشاسعة المحيطة بها بساتين ومغارس وحدائق ، مرتفعاً وواديا وبسائطاً . وهي مدينة قديمة ، وكانت لدى ايام الفتح الاسلامي مدينة صغيرة فتحتها إحدى سرايا جيش طارق سنة ٩٢ هـ يوم اتجهت سراياه من إستجة الى جهات متعددة . ولم تتوفر لدي معرفة قائد هذه السرية ولاعدد فرسانها .

فاستمر نمو غرناطة واتساعها وازدهارها خلال عمرها الأندلسي في الحياة الاسلامية حتى غدت عاصمة مملكة غرناطة أيام بني الأحمر لتلك المدة العامرة بالقرون حتى سقوطها سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) آخر حصن إسلامي في الجزيرة الاندلسية . وبذلك زال سلطان المسلمين السياسي وان بقي وجودهم البشري

والفكري الذي واجه كل اساليب الابادة والإفناء بأوحش الصور وأنكاها على يد الصليبيين ، كان من أولهــا وأبكرها تحويل مساجدها إلى كنائس ، وجرى كل ذلك رغم وجود معاهدة موقعة مــن ملوك اسبانية وسلطاتها السياسية والكنسية والاجتماعية ، وتعهد البابا بالوفاء بها • وإذا كان الوفاء بالعهد عند المسلمين جزءاً من عقيدتهم وخلقهم الاسلامي عرفاً فهو عند غيرهم خلفاً ، وصفحات التاريخ بكل ذلك ملأى طافحة •

وتستلقي مدينة غرناطة ــ بارتفاع يزيد على نصف كم ــ على سفح جبــل شلير (سيرا نيفادا = جبل الثلج) الذي يحوطها ويحتضنها من جنوبها الشرقي الذي لا يكاد يفارق الثلج قمته على مدار السنة يقف فوق ارتفاع شامخ عن سطح البحر وعلى بعد ٧٠ كم عن ساحله من مرمى البصر • ويدفع جبل الثلج بمؤنه من الماء الزلال ذائباً ودافقاً نحو غرناطة في نهر حدرة (حدارة) رافد نهر شنيل أحــد فروع الوادي الكبير النهر الذي تقع عليه قرطبة واشبيلية كما مر بنا •

ورغم كل التشويه والتحويل الذي تحملته غرناطة وقاسته معالمها وهــدد وجودها فلا تعدم ما يشعرك وأنت تتجول فيهــا بالإعلان عــن طابعهــا الاسلامي ، همساً أو حساً حتى إذا ما أخذك دليلك أو قادك حسك أو حملتك إليها هناك قدماك باتجاه الجنوب الشرقي في طــريق مشجر مرتفع ستصل إلى حمرائهــا أو حمــراء الأندلس والتي اشتهرت عند أهل الغرب محرفة باسم الهمبرا برنينها النغم وجرسها الفخم وبكل ما تحمله • وهي تعتبــر أكثر المآثر الحضارية العمرانية الاسلامية المنبثة في الاندلس احتفاظاً لمعالمها ، وهي من عجائب الدنيا المعمارية ودررها الهندسية ونوادرها الفنية وبدائعها الزخرفية ، فبدت مقصد الزائرين وموئل المعجبين ومجمع الدارسين والباحثين والمؤرخين ، ومرتع أرباب العلوم والفنون ومنتجع أهل السياحة والراحة والنزهة وعبرة المستبصرين والمعتبرين والذاكرين بديع صنع الله الذي سخر وأكرم وتفضل فأنعم وعلم الانسان ما لم يعلم •

ترقد الحمراء فوق رابية عالية شامخة بمبانيهــا العتيدة ، المتطلعة بأبراجهــا تتوج تلك الديار ، تربض فوق هضبتها نبيلة ذليلة وحسناء أسيرة لاهثــة لاهفة

وكأنها تمد اليك يدها لتقوم وتصرخ بك فتكسر عنها القيد وإلا فيأسرك رجاؤها بالبقاء عندها للمناجاة والمؤاساة والمؤانسة والاستعداد وكذا الاستمداد • ولربما تشعر بها جدة غير عاجزة قاومت آثار الشحوب محافظة على سر دفين تسرده لك أقاصيص ناعمة مؤثرة فتصغي إلى انسيابها الذي لايخلو من تعثر أو تفكر ، وتكاد بصعوبة لا تفك نفسك عنها أو تفكها عنك ، وحين تستطيع كأنك تريد حمل بعض أطرافها من حجر أو شجر أو زهر ، تسترده أو تستنقذه أو تهمز به رمزاً على تلك الصلة وذلك اللقاء ماثلاً للعيان •

وتقع الحمراء على هضبة مرتفعة جنوب شرق مدينة غرناطة كانت أصلاً قلعة قديمة استمرت أهميتها بالازدياد حتى أيام بني الأحمر حيث بنى محمد بن الأحمر أول ملوكها ومؤسس دولتها قصراً جعله قاعدة المملكة ، واستمرت في الاتساع بما زاده ملوك غرناطة حتى غدت الحمراء المدينة السلطانية درة تاج غرناطة •

فان كنت صاعداً الى الحمراء من فندقك داخل غرناطة فستمر في طريق تحت غابة التفت اشجارها وتعانقت رؤوسها لتعقد فوق رأسك القبة الخضراء ، وإلا فانك تهبط إليها من فندقك المقيم بجوارها المحاط بالأشجار من كل مكان ، حتى لكأنك في مدينة الاشجار والأزهار أو حديقة التجارب والمشاتل الخضراء وليس في قصور وأبهاء الحمراء • وكله يصح ، بأي اعتبار أخذت وبأي جهة بدأت •

وظاهرة الأشجار والتفافها مألوف في كثير من مناطق اسبانيا وفي مدنها الكبيرة المزدحمة وعاصمتها ، إذ لا تكاد عيناك تفتقدها حيثما ذهبت بل أحياناً تكاد تحجب عنك الرؤيا ، وحيثما انتقلت تواجهك ، وهذا غير ما في الحدائق • وهي ظاهرة كنا أولى بها في بلداننا وعلى الأقل لسنا أدنى ولاء أو ولاية لها ، والأمل أن تزدهر البداية التي بدأناها بعون الله تعالى •

فتعال — قارئي العزيز — معي بعد طول انتظار وأنت تسمع هذه الشروح لترى كيف هبطنا تتجمع في قاعة الفندق ثم اتجهنا لزيارة الحمراء مع اخواتنا الطالبات صبيحة السبت الثامن عشر من ربيع النبوي (١٩٧٨/٢/٢٥) في يوم مطير أحببناه

لمطره وخطره ، رغم هطوله الكثيف لم يَعُقْ شوقنا من الترجل من الحافلة لندخل الحمراء من « باب الشريعة » الذي يقترب ارتفاعه من خمسة عشر متراً ابتناه سابع سلاطين غرناطة مع زيادات أخرى في الحمراء أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) .

كان الباب مفتوحاً للسواح الكثيرين الواردين من بلدان كثيرة لا سيما الغربية، تراهم يتجولون في مدن الأندلس التي ما زالت تحتفظ بالآثار الاسلامية ، ولقد رأيناهم في المدن التي زرناها وفي هذه الحمراء والتي سوف نزور ، ومن أكثر الناس الذين تفتقدهم في هذه الزيارات هم المسلمون والعرب منهم كذلك ، لا لأنهم أقل الذاهبين الى أوربا ولكن ربما لأسباب أخرى ، وانك قد تستغرب ألا تجد في طبعات الكتب ــ بالعديد من اللغات ــ التي تباع في كل مكان هناك طبعة لأي منها بالعربية، فهل من علاقة بينهما ؟!

دخلنا الحمراء ومعنا الدليل السياحي الذي رافقنا منذ هبطنا من الفندق يشرح لنا ما يعرفه عن كل مكان زرناه في الحمراء والاماكن السياحية المجاورة ، يذكر لنا تاريخه وأحواله وفنيته وهو ما درسه وقدم له أو لُقِّن إياه . ويؤكد على التاريخ النصراني فكنت أصحح له بعض الأمور فلا يعارض . ولم يشذ هذا الدليل عما هو مألوف في شروح العديد من الكتب والنشرات السياحية الحديثة في اسبانيا التي تقدم هذه المعلومات غثاً وسميناً وما قد يبدو لك انها لا تريد ان تورد اسم الاسلام والمسلمين أو تنسب شيئاً إليهم ، إنما تقول : العرب والعربي ، وهو أسلوب شاع الآن حتى عند المسلمين في مؤلفاتهم وكتاباتهم وكذلك تمثيلياتهم التاريخية . إن العرب المسلمين مع اخوانهم من الشعوب الاخرى التي دخلت الاسلام غدوا جميعاً أمة اسلامية واحدة ، خدمت كلها الاسلام بالروح والدم وكل الجهد ، وكان هو فخرها وانتسابها كما هو واضح مما ألفوه هم ، وتلك كانت نغمتهم التي لا يطربون إلا بها ولا يعرفون غيرها نسباً ومذهباً وولاءً . وكان أكثر مسلمة الأندلس اسباناً ، إلى درجة أنه حين كانت السلطات الاسبانية النصرانية تحمل وتجبر وتقهر أهل الأندلس

على التنصر تقول لهم أن أجدادهم كانوا نصارى (من الاسبان) !! وهو أمر صريح ذكره في الكتب الاندلسية ومنها نفح الطيب للمَقَّري .

والحق : حين ذكرت ذلك للدليل قَبِله وبدأ يستعمله ، ومن الطريف أن قلت له : ربما يكون جدك الأعلى مسلماً فتبسم وقال مؤيداً هذا الاحتمال .

اجتزنا « باب الشريعة » الكبير العتيد في الجو المطير يقودنا الدليل في جولة خلال أبهاء الحمراء وقاعاتها ودروبها حسب الخطة السياحية لنمر بكافة اجنحتها يقود بعضها إلى بعض حتى نخرج من باب آخر إلى أماكن غيرها بنفس الترتيب ، وهو اسلوب جميل . فكنا نتجول لا نقل عن غيرنا انبهاراً لما نرى وما نكون قد سمعنا منها غير قليل وتشوقنا لنراها عياناً ونحس من الصلة به فجئنا نعلن عن الارتباط وفاءً أقل وفاء ، فتنتعش النفس بتجديد ما أمكن من صلات وشد الوثاق تأكيداً .

حمراء غرناطة وقصرها البديع

وقد يمكنك ـ أيها القارىء الكريم ـ من غير كد ، استحضار الجو واستذكار بعض الصور مما قرأته عن رحلتنا الجامعية إلى الأندلس ليتضح لـك تاليهـا حين تقرنه بماضيها في لقاءات ثلاثة سبقت الى هذا وامثالها ، تمضي أمامك في اتـزان يستجلب في طياتها عبر الزمان بجلاء مخبوء دفين بين الأحجار تستعطر دروساً عتيدة، فيها بعض زاد يصلح المحال في استرداد المهدور واقامة معمور لارتقاء صهوة الجياد والمضي الى كل واد منير لبناء الحياة على نمط الجهاد ، فيرتفع صوت الحادي بخير نداء إلى موئل الفلاح •

فكان دخولنا من «بابالشريعة» في أول الحمراء ، كما تذكر • وهيباب كبيرة عظيمة رحبة قادتنا الى أفانين من الروعة والابداع داخل الحمراء ، تستدر الاعجاب وتبحث عن استيعاب العواطف حين تبثهـا لصديق أو تسمعهـا لغريب ، وإذا به مثلك أو يزيد •

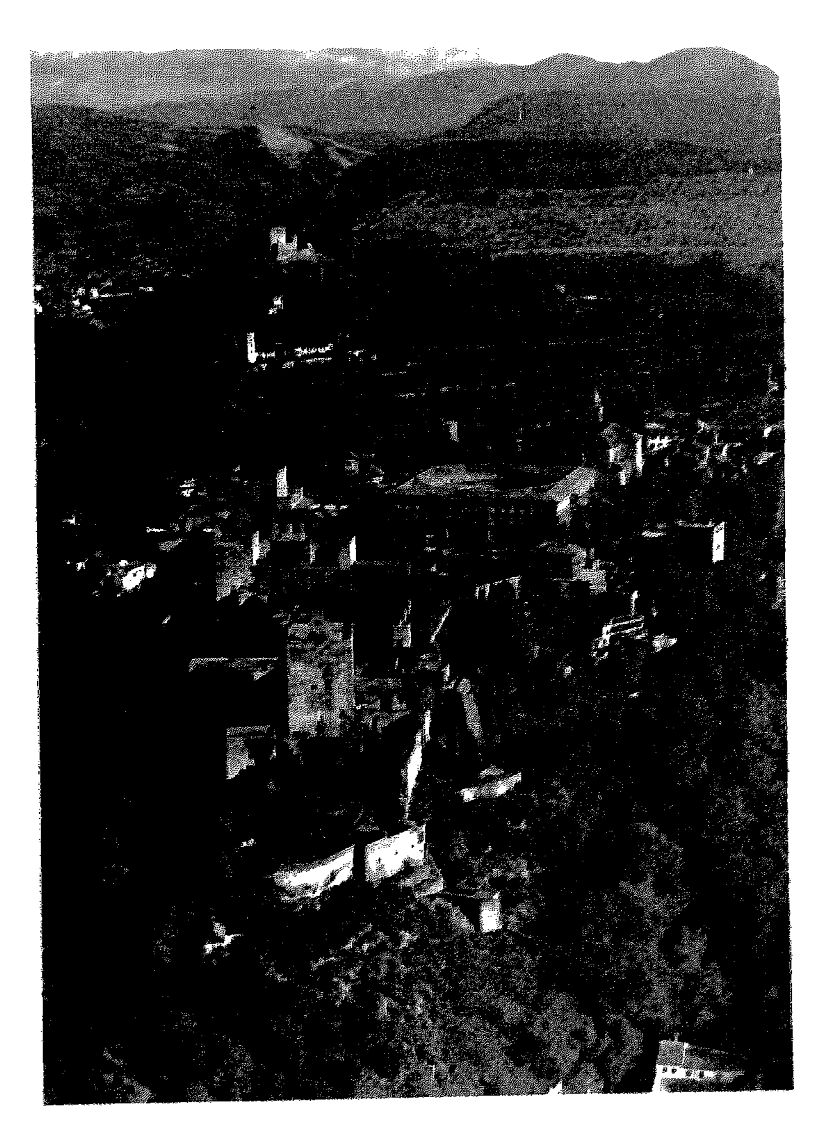
وكنا حين انتهينا منها لم نلح باطالة الوقوف في مدينتها غرناطة ، وكأننا أردنا الاحتفاظ أطول مدة بما احتويناه وامتلكناه من تلك النشوة المتجددة المهداة أو المعطاة إلينا من زيارة بللت النفس بأحاسيس حياة الأهـل الذاهبين وحركت الفكر بمعاني الحياة المتنورة واعتصرت القلب بأمواج الغيرة أمام رؤية الخير • فأردنـا الاحتفاظ بها ولو الى حين •

دخلنا حمراء غرناطة من « با بالشريعة » إلى مجازها ، مستمرين بالسير نرتقي هضبتها حتى قمتها حيث تستقر بنا بأبهائها وقاعاتها إلى أن يأتي دور ارتقاء القصبة وجنة العريف وحدائقها مكتفين عندها بالنظر إلى أعلاها المغطى بأشجـار وأزهار تليق بوقفة تحية واعتبار تقصر أو تطول ناظرين إلى خرير ذلك الماء المتحدر بقوته وصوته ومنظره الجذاب وهو قديم جديد •

قادنا الدليل السياحي ــ بعد عبور المجاز ــ فيدرب مرتفع ارتقيناه ، افضى بنا الى ساحة في أعلى الهضبة وسطحها المستوي الواسع ، وابتدأنا نستعد لدخـــول أبهاء وأفناء الحمراء وقاعاتها ونحن نستعيد الأنفاس متماسكة متدافعة ومتهدجة من تعب الصعود وتدفق الاحاسيس لاستطلاع رؤية متلهفة لِلـقيا عزيز تعرفـــه ، طال انتظارنا له • وبدأنا بأول القاعات ، كانت ترمم ، ويبدو أن ذلك ليس للمرة الأولى مما كان له أثر في إقلال وضوح الطابع الأندلسي ، وكان الى جواره مسجد صغير لم نستمتع بالوقوف فيه لتصليحات ربماستذهب بقدرمن بهائه وزيه وأجوائه• وليست هذه أول قاعات الحمراء لكنها المتبقية منها • ومن هذا المكان دخلنا الى قاعة مليئة بالروائع ، ورغم انكسارها بعبث الاعتداء يدهشك فنها الذي كان مفصحاً رغم ما أصابه من تشويه ثقيل أذهب ما فيها ــ إلي أي حد ــ من براعة كانت مما تتمثل فيه ، بجانب زخارفها وزجاج شبابيكها الملون الذي يبدو متلألئاً حين سقوط الضوء عليها ، ولم يبق من هذا غير قليل • وفي هذه القاعة كم اجتمع السلطـــان بالرعية للنظر في المظالم يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ثم استعملت للقاء الوزراء وأعيان الدولة للمداورة والمحاورة والمشاورة فسميت « قاعة المَشْور » •

ثم سرنا ــ ونحن نسمع الشرح من الدليل ــ خلال ممرات وقاعات واستراحات متعددة المهمات ، ومنها حمّام فيه حنفيـــات للماء الحار والبارد ، وتبقى مشدوداً بروعة الفن والزخرفة والتأنق وهنا لم نطل الوقوف لكثرة السائحين ، وإذ ازدحم المكان فعجلنا الخروج لنترك للآخرين المجال ونسرع إلى رؤية ما يقودنا إليه الدليل أو يؤدي إليه الطريق من مناطق الحمراء ومرافقها •

ومع الجو المطير كانت الحمراء ــ كغيرها من مآثر الأندلس الاسلامية المتبقيةــ تموج بالسائحين المنتسبين الى جنسيات وثقافات وانتماءات مختلفة متباعـــدة أو متقاربة جذبتهم هذه الروائع ، وهم يَفدون إليها قصداً وعمداً وفرداً • فتسمع أنواع التعليقـــات بالعديد من اللغـــات ، وهي لاتخرج عن إطلاق العبـــارات دهشـــة وإعجابـــاً واعترافـــاً •



منظر جوي للحمراء



منظر عام لفناء الريحان في الحمراء

فكانت هذه البدائع والفرائد والنوادر قد جمعت هؤلاء السائحين تلقاهم أينما تذهب متجولاً بين آثار الأندلس الاسلامية في أي من أيام السنة ، مجموعات أو أسراً أو أفراداً ، وبذلك غدت اسبانيا بلداً سياحياً عالمياً بسبب هذه الآثار الاسلامية فيها .

إن جل — إن لم يكن كل — الاهتمام بالسياحة في اسبانيا والإنفاق عليها وتجهيز متعلقاتها واحتياجاتها ، كالأدلاء والمكاتب التي تقدم النشرات والمعلومات والتوجيهات بعدة لغات ، وخدمات الفنادق والنقل وشركاته بين المدن وداخلها ، والعناية بالمناطق وتجميلها بيد مستمرة من الرعاية والعناية جاء عقب ابتداء إدراك أهمية المآثر الاندلسية الاسلامية وتركيز العناية بها — ولو على بطء ومهل وتوقف — منذ حوالي قرن ، ففتح باب السياحة واسعاً على اسبانيا بميادينها الكبيرة وسوحها الكثيرة التي احتوتها هذه المآثر الاسلامية فيها ، فجذبت السائحين وما زالت تدفع بأعدادهم الهائلة لاشتهاء السياحة في اسبانيا وقضاء إجازاتهم فيها تفضيلاً على غيرها حتى غدت اسبانيا أول بلدان العالم سياحة منذ سنوات ، إذ بلغ عدد السواح إليها سنوياً مماثلاً لعدد سكانها : خمسة وثلاثين مليوناً يؤمونها على مدار السنة . وكان لهذا الحال أفضل النتائج ليس فقط على العناية بالآثار الأندلسية فيها — وهو أهم سبب فيه ، وربما كل السبب له ابتداء — بل وكذلك بالعناية الشاملة لكل المرافق والعمران والجمال الذي تتعلق بهذا الأمر . فكان إذاً للآثار الأندلسية على اسبانيا — بجانب كل الفوائد والاعتبارات والأهمية والنتائج المتنوعة الواسعة — أن دفعت إلى العناية بأحوال اسبانيا وتجميلها وتنظيمها وتعميرها للسياحة إلى تنمية كثير من الأمور والمرافق وإلى الإكثار من الإنتاج وتحسينه وإتقانه والارتقاء به ، فدر كل ذلك وغيره دخلاً عالياً لها وأمطر خيراً عليها وأمدها بعوامل النمو والازدهار الذي شمل الكثير من النواحي والمرافق المعاشية والعمرانية والناس بشكل عام .

وهكذا رأينا الحمراء وغيرها مزدحمة بالسائحين ، مجموعات وأفراداً يتقاطرون متتابعين ، فخرجت مجموعتنا تاركة المكان للآخرين .

خرجنا بعد ذلك إلى فناء الريحان وهو المسمى أيضاً فناء قَمارِش ، وهو باحة أو ساحة أمام القاعة أو البهو الذي يحمل نفس الاسم : قاعة أو بهو قَمارِش ، التي تسمى كذلك قاعة أو بهو السفراء ، حيث يشير هذا الاسم إلى وظيفته • ارتقينا درجات قليلة لنقف في بهو قمارش أو بهو السفراء • وقمارش صيغة جمع اسبانية لكلمة عربية : قمرية ، وهي شرفة يدخل منها النور • وحين ترفع رأسك إلى أعلى القاعة او البهو المرتفع السقف تلاحظ شرفات عديدة هي القمريات (قمارش) • وإذا كان الاجماع تاماً على روعة مباني قصر الحمراء بكل ما فيه فان قاعة السفراء هذه تكاد تكون من أكثر الأجزاء فيها جمالاً وروعة وفنية ودقة وسعة وشهوق قبة التي يزيد ارتفاعها عن عشرين متراً ، وقد لا يفوقها في ذلك إلا ساحة الأسود أو السباع وبعض القاعات المجاورة • ويقوم على أعلى بهو قمارِش برج قَمارِش ، واحد من أبراج الحمراء الواقفة من عل بمواجهة غرناطة والتي تطل منها على مدينة غرناطة لتشهد منظراً جميلا • وبرج قَمارِش هذا يطللك بوضوح على حي البَيّازِين أشهر أحياء غرناطة قديماً وحديثاً كما هو حي الجهاد والمجاهدين — مع غيره — في هذه المدينة الباسلة •

كنا نتجول في بهو السفراء ننقل أنظارنا إلى جوانبه المختلفة ، وحيثما تدير رأسك في جدار وقبة البهو تجد الزخارف الفنية بجمالها الجذاب وخلابة مناظرها وتناسقها الفني البديع • وليس في كل هذا الفن أي نصيب لغلاء موادها البنائية كالذهب أو نادر الخشب بل هي من أرخص المواد ، وهذا يضيف خاصية أخرى يجعل جمالها كامناً في الفنية ذاتها وحدها فنية غير موقتة البهاء والروعة والجاذبية بل فنية الاحتمال والقوة والنصاعة والاصطبار كما يلمحها اليوم عبر القرون الماضية وإلى أن يشاء الله ورغم عوامل التأثير أو التهديم والإساءة • وإن كان غلاء المواد يضيف لها مزيداً ويضع فيها جديداً وهو ذو أهمية في أمور خاصة كذلك تقوم عليها وتكون بها وقد لاتصلح بدونه لاسيما كالزينة والتجميل والتكريم ، لكن الحديث هنا في مجال الاشارة الى التفنن والزخرفة والتنوع والدقة والأناقة والذوق الرفيع والقوة والأصالة والخبرة وهو تعبير عن الفنية الراقية بروعتها المتميزةالمبكرة

المبتكرة والسابقة • ورغم بعض التشويهات التي أصابت حيطان بهو السفراء فلم تذهب روعتها ، وترى بجانب زخارف الفن الكتابة المزخرفة ، ويمكنك أن تقـرأ عبارات غير قليلة حيث زخرفت بآيات أو سور من القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ فهو دستور المسلمين وبناء حياتهم ومصدر أمورهم وقوام نفوسهم وعقولهم وأصل تقدمهم في كل الميادين،فرأيناهم فيها جميعاً مبرزين وسابقين ومتفننين كما هو الحال فيما تبقى من فن العمارة في الأندلس وغيرها التي تعبر عن مستوى ما وصلوا إليه • وإن هذه العمارة ليس أبرع مافي الحضارة الاسلامية بل هي واحدة من الثمار توفرت في ذلك الجو الكريم الذي لا ننتظر منه إلا كل خير واتناج طيب ومشرق رائع في كل وجهة وجانب وهو ثمرة طبيعية ولكن يبقى المهم هو المجتمع والجو والحياة الاسلامية التي تنبت هذه وغيرها وإن هذا الـذي نراه في المآثـر العمرانية في الأندلس وغيرها هو بعض مابقي لنا ماثلاً مشهوداً ودليـلاً ولكنـه ما اندثر أو ذهب مع أهله من الصور الانسانية الرائعة الفريدة المتميزة التي لا تكون إلا بالاسلام ذهبت أعيانها وبقيت أخبارها في الكتب مدونة في المتبقي من ذلك الاتناج المسطور كان اروع وأبدع •

فإذا ما نظرت في مدار أسفل قبة بهو السفراء تجد سورة تبارك مدونة فيه ، ولعلك تتمنى وأنت تشاهدها أن تسمع تلاوتها ترتيلاً أو تجويداً ولعلك أنت تفعل ذلك في نفسك أو حسك أو بصوتك وربما تعتب أهل ذلك المكان وتندب مآلـه وترثي حاله في هذا الضياع لكل ذلك الذي كانت هذه الآيات وغيرها تنوره وتملأ حياته بمعانيها غضة متجددة متحركة قائمة في النفوس ظاهرة في السلوك مضيئة في الانسان والحياة وكل اتناج فيها ، وهكذا فالخير والنجاة والحياة في الاعتصام بحبل الله والفوز برحمته وجنته ورضوانه •

ثم تجد في قاعـة السفراء هذه بجانب الآيات الكريمة عبارات أخرى وأبياتاً شعرية موزعة هنا وهناك ، منها عبارة تجدها متكررة في هذا البهو وفي غيره من أبهاء الحمراء وفي كل مكان منها لاتكاد تفتقدها عبـارة هي شعار بني الأحمر ، وهو : « لا غالب إلا الله » نعم لا غالب إلا الله فنعم الشعار •

نزلنا من هذا البهو العجيب مأخوذين لنواجه ساحة أو فناءً مكشوفاً مستطيلاً واسعاً كبير المساحة ، تقع على جوانبه مداخل قاعات أخرى متعددة وتتوسطه بركة ماء على جانبيها أشجار الريحان ، فأعارت اسمها هذا الفناء . وقفت مجموعتنا ـ وفد طالبات جامعة الإمارات ـ تحت السقف المطل على فناء الريحان تتأمل بدائع صنع الله العلي القدير في كل ذاك وغيره وفي قطرات المطر الهاطل تنقر صفحة الماء فتتراقص قطراته وقطراتها في منظر أخاذ ، ومن حولها يبل الماء النازل ريحانه فتنتعش ويغسل رخام الأرض من حولها فتبدو أكثر نظافة ونصاعة وجمالاً ، وكأنه يشارك الناظرين طرب ماء البركة أو يزيد المنظر جمالا وتناسقاً وهو لله ذاكر وعلى هذه النعم شاكر . فكان لنا منظراً تتأمله أطلنا الوقوف عنده وان كنا شغلنا عنه شيئاً ما فلالتقاط صوره وصورنا معه وكل ذلك من مغانم الرحلات لاسيما لهذه الأماكن ، فكيف تفوتنا وسائل حفظها أو واحدة منها . ولكن الدليل لا يطيل الانتظار فاستحثنا على التحرك لمتابعته إلى ممرات قاعات متعددة كل واحدة أجمل من أختها وإن تميز بعضها . ولكن إذا مارأيت مكاناً في الحمراء ـ كما هو في غيرها ـ ينبو منظره عما ألفت من الفنية فاعلم أنه من إنشاء سلطات اسبانية النصرانية التي قامت به بعد سقوط المكان ، وذلك رغم وجود المثال وربما الخبرة المتبقية .

ثم خرجنا إلى مكان بدأنا نتعرفه من بعد ونحن نتدافع أو نتدافق إليه ومن خلال أعمدته أنه بهو أو ساحة عرفناها بأكثر من وسيلة ، فنطق العديد منا متنافسين في معرفة اسمها ، وهي ساحة السباع أو ساحة الأسود . يتوسطها اثنا عشر أسداً ، تكوّن دائرة كاملة تنضح الماء من أفواهها ، وهي تحمل فوق أظهرها حوضاً مرمرياً تعلوه نافورة تفوح بالماء إلى أعلاها . وهذه الساحة مستطيلة الشكل تحيطها الأروقة ذات الأعمدة الرقيقة الرشيقة الرفيعة الرخامية البيضاء تتوجها القباب . وظاهرة رشاقة ورقة ودقة الأعمدة التي تحمل السقوف والقباب والأروقة في كافة المآثر العمرانية الاسلامية في الأندلس مألوفة معروفة ، وهي طابع واضح فيها ، تدل على إحدى فنيات قواعد البناء وأصوله الهندسية وحساباته الرياضية ، وإذا كنا نلحظ هذا الأمر واضحاً في الحمراء التي أنشئت في تاريخ متأخر فإننا نلحظها كذلك

في المباني المتبقية التي قامت مبكرة منذ القرن الأول لوجود المسلمين في الأندلس وهو القرن الثاني الهجري كما سنشاهد في مسجد قرطبة الجامع .

اقتربنا من هذه الأسود أو السباع وتمليناها وتمنينا لو شافهناها واستعدناها رواية قصتها لكن الماء كان يجري من فمها وهي تماثيل . كانت أيام الأندلس تزفر الماء بوقت ودقة وعدد ، كانت ـ على ما قيل ـ كل منها ساعة من الوقت بالتتالي لتكون ساعة زمنية وكان بجوارها أسود البشر زالوا عنها فكأنها جامدة صامتة . فمتى تعود السباع الناطقة أو تستنطق هذه السباع ؟

تملكنا الاندهاش لهذه المناظر الرائعة والفنية العالية والزخارف المتنوعة المتناسقة الدقيقة البديعة ، عشرات الأنواع متداخلة متكاملة والتي تنبؤك بالمستوى الرفيع الذي كان عليه المسلمون ، تتجول فيها ببطء شديد تتجاذبك للنظر إليه ، فما تكاد تشبع نظرك من طراز منها حتى يملكك الآخر للنظر إليه وإن واقعها لأبلغ بكثير من الصور بألوانها فكيف بوصفها أو الحديث عنها ، وذلك محث لزيارتها .

ثم تجولنا في العديد من القاعات المتصلة بفناء السباع ، منها قاعة بني سراج وقاعة الملوك وقاعة الأختين وقاعة العدل وكلها تمتلىء جاذبية ولا تكاد تفضل الواحدة على الأخرى او تغنيك عنها وتكاد ترغب أن تصور كل ركن وقطعة وجهة ، وهكذا فعلت مجموعتنا . فكنت تسمع تتالي ضربات المصورات المتعجلة . وما نكاد نشبع أو نكف عن المزيد لكن لا بد من المسير .

ثم انسحبنا عن كل ذلك متثاقلين لترك الحمراء وفنياتها المتقنة وأذواقها المتأنية المتأنقة وبدائعها المتذوقة ونحن نشعر بشوق إليها وتعلق يكاد يردنا لتكرار الارتباط وتأكيده أو نستكمله وكأنها تناجيك أو تستسرك بحيائها الصامت أو سكوتها البليغ تحدثك عن أملها المكسور وروائها المهجور تبثك لوعتها وتستطيل غربتها وتستوحش وحدتها رغم كثرة الزائرين وتزاحم القاصدين وتعلق المعجبين ، فغربتها بعد الأهل عنها وخلو الأحباب منها وفرض الانتماء عليها فكأنها تشتكي إليك أو تشكوك أو تشتكي عليك . وبأي من هذه تشعر ومهما فاتك منها فلا يفوتك الشعور بالحنين الهادر والكلوم الغامض والأمل القادم . تتركها وكأنك تخلع نفسك من

أحضان أم رؤوم تماثلها حناناً وترتبط بها جناناً وتبادلها ولاءً وتناظرها انتماءً كما تَعِدها لقاءً •

وحين تبارحها تمر في طريق بك بقصر أحد ملوك الاسبان النصارى ابتناه في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)كارلوس الخامس (شارلكان)الذي ارتكب جنايات كبيرة وكثيرة في عدد من الأمور ضد المسلمين ــ ديدن سياسة اسبانية النصرانية ــ كان منها تشويه وهدم العديد من مآثر الأندلس العمرانية من أمثال تشويه مسجد قرطبة الجامع وهدم جانب من الحمراء هذه ليقيم القصر الحالي مكانه ، حقداً وأنانية ومصلحة ، فلعله ظن كذلك ان مجرد وضع قصره ضمن هذه الروائع يكسبه روعة ويرتفع هو مكانة ويدخر مجداً ، ولكنه إقامة قصره ووضعه مكان أي جزء من الحمراء إساءة الى كليهما ، فكيف بالحمراء •

إن الحمراء تعبت من جراء كل هذا التشويه المتعمد الغشوم الظلوم وكذا العبث والاهمال وما نسف منها أوائل القرن التاسع عشر في الحرب الفرنسية الاسبانية حتى أثار ذلك سخط بعض الأثريين الاسبان ولم تبدأ العناية بها وترميمها التي حدثت فيه بعض الأخطاء إلا منذ حوالي قرن • ومع ذلك كانت الحمراء على الصفة التي رأيناها بها وتم تدوين بعضه هنا فكيف لو تمت المحافظة عليها أو كيف كانت هي في أيامها الزاهرة الذاهبة ، ولعلها آيبة إن شاء الله تعالى •

إن المتبقي من حمراء غرناطة يعتبر درة المآثر الأندلسية العمرانية المتبقية ، وهي كذلك تاج الفن المعماري في الوقت الحاضر ــ فلا غرابة ــ فشهرة الحمراء عالمية تجتذب بقوة وكثرة مزيداً من السواح المعجبين وذلك وحده كفاية ومدعاة للعناية بها ، فامتدت خيوط التعلق بها إلى مناطق العالم كافة يذكرونها بالإعجاب والاندهاش والثناء ، وليس من قادم إلا ويريد أن يطيل الوقوف فيها والبقاء بها كما يتمنى العودة اليها بمزيد من الرغبة الملحة والتعلق الحنون والشوق الملهوف ، وهي أمنية غالية لا تحتمل منا طويل انتظار ، فلتلبى •

بَنات الحَمراء وأمّهنّ المدينة

تركت مجموعتنا قصر الحمراء وهو لبها وأمها والحديث عنه هو الحديث عنها ، وإذا ما ذكر فهو القصد الشامل ، فالحمراء هو وهو الحمراء ، وإن بقي فبنات وتوابع لكنها تتميز تركيزاً بروعة الخضرة وجمال النضرة ، وهي على القصر ليست غريبة من داخله أو مما حوله مشاركة في النوع وتعدد في اللون وتوزيع في العمل واستجابة للجو وامتياز في الطبع وتلبية للحاجة والانتفاع بنعم الله مما يحلو وتألف النفس وتهفو وترتاح له العين وترنو ، ويطلبه الحس ويدنيه الشعور في لوحة تمتلك جليل الفن ورائع الجمال في مثال مدهش فياض بالجاذبية وعذوبة اللحن تعمره رقائق اللمسات وتغمره نواعم الهمسات فتدفق خلاله روائع الاحساسات . تركناه وقد امتلأت النفس بكل حفي بهي خلف فيها معاني عميقة وفي الحس آثاراً قوية والفكر صوراً عبقة ، نكاد نمسكها بأيدينا لوضوحها ونحسها ماثلة برسوخها ونجدها أمام أعيننا لامتلائها . تركناه هكذا في رابع اللقاءات ـ في الحديث عن رحلة طالبات جامعة الإمارات إلى الأندلس ـ وكأنه لا متسع في أفق النفس لغيرها ولو كان من بناتها أو حولهن ، ولكن آفاق النفس تتسع لكل فريد وتدخر كل جديد وهي رحبة للبعيد والقريب . هكذا خلقها الله سبحانه وتعالى لا يضيق بما يفد عالمها ، فالنفس عالم آخر بألوان استعدادها ، ولكل مكان متسع يفيء إليه كل ما في هذا العالم أو فيها لا تحتاج معه إلى مكان مما ادخر عن الحمراء أو قصرها لا يزاحم من بناتها أو لغيرها ولا يغمر أو يغطي أو يسبق ما لأمها .

وبنات الحمراء أو توابعها أو ملحقاتها ، بعد القصر الذي زرناه ، هي : القَصبَة وحديقة البَرْطَل وجَنة العريف بمبانيها وحدائقها مشاركة للأم بما فيها من العمران وخضرة البستان لكن مع اختصاص وحماية .

تركنا قصر الحمراء لنتجه الى توابعها أو أفراد أسرتها أو بناتها وهي تلك الثلاثة (القَصَبة وحديقة البَرْطَل وجَنة العريف) ، فابتدأنا بأولاها وكانت أقرب إلينا من حيث انتهينا . تكون هذه جميعاً — مع قصر الحمراء — مدينة الحمراء التي تسمى كذلك قَصَبة الحمراء، الذي هو اسم قديم لعله قبل توسع هذه المدينة الحمراء يوم كانت في الأصل القصبة قبل قيام دولة بني الأحمر ، وهي القسم الغربي من مدينة الحمراء التي اتسعت مع الزمن خلال سني مملكة غرناطة على يد ملوكها لاسيما سابعهم أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ — ٧٥٥هـ) فضمت داخل أسوارها قصر الحمراء ، أروع وأوسع ما فيها ، إلى اليمين شرقاً وقصبتها إلى اليسار غرباً وحديقة البَرْطَل الى يمين القصر شرقاً . أما جَنة العريف — انضوت الى مدينة الحمراء أو استقلت منها — فتقع خارج الأسوار الى شمال مدينة الحمراء المسورة شرقاً . فانحسر اسم القصبة إلى الأصل وهو المبنى الغربي من مدينة الحمراء وبجوارها قصرها الكبير الذي زرناه وخرجنا منه لنلقى القصبة أمامنا قريبة منا ومنه .

الذي يبدو ان القصبة أطول عمراً من قصر الحمراء وغيرها ، فكانت نواة مدينة الحمراء وما حولها ، وهي في هذا الأسلوب من النمو ليست في الأندلس وحيدة بل لها أكثر من مثيل كقصبة مالقة المذكورة والزهراء والزاهرة في قرطبة . وبنات الحمراء تدخل في إهاب الحمراء ومدينتها وتحوطها بحضنها وتنتمي لأسرتها وان كانت الحمراء مدينتها تشير — بشكل أوكد — الى تلك القاعات الكبرى التي زرناها .

ولقد أحياناً تسمى هذه القصبة المجاورة لقصر الحمراء التي توجهنا إليها «القصبة القديمة» ، وهي أصل مدينة الحمراء وأقدم أجزائها وأعلا هضبتها . والقصبة مدينة تضم قلعة عسكرية مسوّرة مسكن الحاكم ووزرائه مع دواوينه ، ثم تنمو وتتسع كما جرى مع الحمراء التي غدت مدينة ، بقيت قصبتها تؤدي دورها وان زاد ما تلاها من بناء عليها وفاقها فأدناها .

وتاريخ قصبة الحمراء أسبق من مدينتها لكنه طبعاً متأخر عن مدينة غرناطة التي كانت صغيرة غداة الفتح الاسلامي لها سنة ٩٢ للهجرة بواحدة من سرايا الجيش

الفاتح بقيادة طارق بن زياد • ويعود تاريخ قصبة الحمراء القديمة حين بنيت قلعة في أعلا الهضبة في القرن الرابع الهجري ، فاستمرت في النمو والتوسع والتحسن حتى اذا ما كانت أيام بني الأحمر كان لها من التاريخ ما كان وحتى اليوم رغم ما أصابها من المحن وصب عليها نكبات واعتصر فوقها حقد أهل الفشل • فالقصبة مجاورة لما زرنا قبلها من أبهاء وأفناء قصر الحمراء التي هي أهم وأفخم ما في مدينة الحمراء ، وإن امتلكت القصبة وأخواتها بعض الخصائص • وإذا بدت الحمراء بقصرها اليوم أصلاً أو أماً لأهميتها ومكانتها العمرانية والفنية ، وسعتها ومقدار ما بقي منها وكثرة قاعاتها فان القصبة أطول عمراً وأعلا موقعاً واشمخ أبراجاً لكن ما تلاها من بناء غدا أصلاً فتركزت العناية بها وانحسرت القصبة بوظيفة خاصة فكانت تابعة أو تالية • وهكذا الدنيا دول وما فيها يزول ويحول ، والكيس من لايصيبه الغرور بل يعرف قدره ويلزم حده ويعبّد دربه يسلكه بمنهج الله فيحظى برضاه ، فيعمر الأرض حضارة خيرة منيرة انسانية بانية مشرقة بنور الله العلي القدير وبهذه العبودية لله تعالى كاملة ناصعة ساعياً إليها ومقبلاً عليها يفوز ــ بعون الله جــل جلاله ــ بسعادة الدارين متنعماً بظل الله العزيز يوم لا ظل الا ظله وذلك هو الفوز العظيم •

سارت مجموعتنا تجري تحت شديد المطر نحتمي منه بمظلاتنا لترتوي منــه بسرعة ، وتخلف بعضنا ربما زهداً بعد ما رأى من قصر الحمراء ما كفى • جرينــا نحو القصبة نرتقي طريقها ، فهي تجلس فوق قمة هذه الهضبة الواسعة المستوى والتي تقوم عليها مدينة الحمراء بكل أجزائها • فالقصبة أكثر ارتفاعاً من باقيها ، وبرجها أعلا من أبراجها ، علو موقع وارتفاع مشهد • فتطل وبرجها الشاهق ــ المسمى برج الحراسة ، مشتق من وظيفته ــ على منظر غامر الجاذبية على مدينة غرناطة كلها أو يكاد فتراها دونك • وحين تنظر إلى الشرق والجنوب يعلوك جبل شُلَيْر (سيرا نيفادا = جبل الثلج) وانت بينهما ترد في النظر وترفع البصر تحار فيه ، فأي موقف جذاب وما أروعه منظر خلاب وسبحان الله الخلاق العظيم •

ورغم المطر الذي اضطرنا إلى إشهار مظلاتنا حماية فقد تقاطرت وتتابعت فلول من مجموعاتنا بدخول القصبة وآثر البعض التخلف عنه اكتفاءً بما رأت أو احتماءً من المطر أو استرواحاً وانشراحاً • سرنا في درب طويل حتى وصلنا البرج الكبير ، ولم نتحر أحواله فوقفنا قليلا نتذكر معتبرين ، ثم عدنا أدراجنا لنلحق ببقية الركب المنتظر أو المنشغل •

اتجهنا نحو الحافلة لتنقلنا الى حديقة البَرْطَل وفيها بعض المباني كان جمال الحديقة المدرجة رائعاً وأخاذاً وكالعادة التقطنا بعض الصور ولم يطل الوقوف عندها فتحركنا لغيرها على عجل •

اتجهنا بعدهـا ــ صحبة الدليل السياحي الغرناطي ــ صوب جَنة العريف ، التي تقع على ربوة عالية منعزلةعن الحمراء بمدينتها ،يفصل بينهما طريق طويـل ، استعملها ملوك غرناطة نزلاً ومتنزهاً ومنتجعاً للاسترواح والتأمل والتنزه •

وصلناها متشوقين ومتشوفين ، فدخلناها ، وجدنا عجباً من الجمال والروعة والفن والزخرفة ، ولكن بلون جديد • إذا كان جمال قصر الحمراء يكمن في البناء فهنا بجانب ذلك تعجب من جمال فن الحدائق ، تتسم بحسن الذوق والتفنن والتنوع ومن غير تنافر ، بانسجام متوحد كل منها يستقل بجماله ويعطي جمـالاً جديـداً باتحاده : جمال الماء وتوزيعه وجمال الخضرة وتنوعها وتدرجها وتنوع أشجارهـا وأزهارها وجمال البناء المنحصر ، تغالب الخضرة تغلبه وتخفيه ، كله يزهو مستقلاً ومتحداً • كل ذلك يقدم جواً هادئاً ، وتؤكد عزلة موقعها هذا الهدوء ، وخرير الماء يصرف الذهن نحو السكوت لتسمعه ، وأنت تنظر كل ذلك بنفس متأملة معتبرة حامدة وشاكرة فناظرة من موقعها الى غرناطة والحمراء تغترف متعة ونعمة من كـل لون كريم ولمثل هذا قامت جنة العريف •

دخلنا جنة العريف لنشاهد قصرها المزخرف ، غير كبير كما ألفنا وحين تجتازه تقف أمام منظر مدهش ، نافورة جميلة تصب في حوض مستدير يجاوره حوض مستطيل تصب فيه نوافير الماء برقة ورشاقة ، تعقد أقواساً من الجانبين على امتداد

لتكون بركة طويلة تزين ما حولها من جهاته ، تجلل ذلك وتكلله ألوان الازهــار والاشجار عالية ومنخفضة ومتدرجة • ثم تمشي من رواق على طول المكان لتصل الى نهاية امتداده فتدخل قصراً آخر تطل منه على الحمراء فغرناطة ، ثم تصعده لتعبر الى الحدائق العلوية لجنة العريف •

لعلك تذكر ــ أيها القارىء الكريم ، في لقائنا الرابع السابق ــ روعة الفنية والزخرفة في أبهاء وأفناء قصر الحمراء ، فان جمال هذه الحدائق وروعة اشجارها وازهارها المزخرفة وفنية التجميل وذوقيته والتأنق فيه ثم الزينة والفن في استعمال الماء عنصراً للجمال بشكل جذاب ورائع تجده هناك • ولقد تم إحياؤها في الحاضر على مواقعها وعلى طريقة مدينة الحمراء في الأيام الذاهبة وبنفس ترتيباتها ومواقعها ومنحدراتها وارتفاعاتها ، ولعل ما كان يومها أعظم وافخم • لقد رأينا منظراً يقدمه ترتيب الماء وخريره ، وجريانه وانبثاقه ، يكون رقعة فنية رائعة واسعة متحدة وموزعة في داخل الحديقة لا لغرض سقيها كما يرى ولكن لغرض فني جمالي تزييني ممــا لا نجده في مكان آخر أو في أي مكان غيره من الأرض الخضراء •

تقف في ذلك المرتفع لتطل على الحمراء وغرناطة ، الى جانبك هذه الخمائــل الهيفاء والحدائق الغنــاء المنعشة المدهشة وما تكاد لتشبع نفسك وتروي حسك وترضي هوايتك حتى تطلب المزيد • وإن هذه الحدائق تستحوذ على أحاسيسك لتجد نفسك منبهراً بعجائب صنع الله العلي القدير وتود أن تهتف بآيات الله المنطوقة في قرآنه الكريم أمــام آيات الله المخلوقة في كونه العظيم وتستحث الذاكرة لتسعفك بذلك فتنادي هاتفاً الله اكبر « فتبارك الله احسن الخالقين » • فتلتقي عندها آيات القدرة العلية بجوانبه منتظمة في اللوحة الفنية الجمالية المذهلة صنعة الله رب العالمين ناطقة بقدرة الخلاق الرحيم ويد نعمته على الانسان في هذا المنظر وأمثاله في كون الله العريض مسخرات بأمره مليئات بحلاوة هدايته ببينات شــرعه المبين مستأهلاً خلافته في أرضه ومعمراً لكونه بما سخر الله له وفجّر وهداه إليه ونوّر •

تقف في طريق من ذلك المرتفع عريض محاط بالخضرة والنضرة تحتار كيف تقف وأين تتجه ، بين ما فيها وما تطل عليه من غرناطة والحمراء وترنو إليه من الجبال ومساقط الماء . فاذا وقفت في ركن لتجعل ظهرك اليه فعلى يمينك غرناطة والحمراء وامامك طريق طويل جميل وتشير بيسارك الى مرتفع متدرج الى الانحدار الشديد أقرب أو إلى الارتفاع أميل أو إلى الوقوف بصفحته نحوك أنجد .

يملأ هناك مساحة واسعة تبدو غابة جميلة ظليلة مزينة ، كأنك واقف فوق سفح جبل شق أمامك فيه طريق ، مرحلة لتستأنف صعوداً إلى قمة الجبل ، غدا حديقة ملونة الأزهار منوعة الأشجار تطربك منه زقزقة طيره ويؤنسك فيه وشوشة مائه وهو ينصب من عل لا يصل اليه نظرك لاحتجابه ، يجري قوياً في مجريين في احضان قناتين حجريتين مكشوفتين على جانبي طريق يقودك صعوداً الى أعلا الجبل وما يكاد الماء ينحدر إلى أسفلهما إليك في موقفك على الطريق وما أن يصل إلى النهاية فيهما حتى يدخل المجريان كل في قناة متصلة به ومغلقة تغوص في داخل الارض وهي تلتهم الماء النازل إليها وتخفيه وتنقله من تحت الطريق الذي تقف فيه لتصل به قواعد النوافير المقوسة المرمى عند البركة ذي الحوض المستطيل والحوض الدائري في باحة جنة العريف عند المدخل وبعده بين القصرين . فهذه النوافير الكثيرة القوية في الحوض والبركة ، وهي تنضح ماءها بقوة وعلى الدوام ، هي نوافير طبيعية لا تتوقف بل وكأنها لا تستطيع أو لا تريد لقوة هبوطها ، مثلما نحن لا نريد .

وهل تفوت المصورات هذه المناظر ، فتتنالت أصواتها متكاثرة متنافسة تختار وكل ما تصوره سيكون خير اختيار ولو من غير اختيار .

ولعل هذه بعض ما بقي من الروعة الجمالية مما كان بجنة العريف التي أصابها البلاء وشوهها العفاء مثل الكثير أمثالها من مناقب المسلمين الفنية ومآثرهم العمرانية وثمارهم الفكرية من ميادين الحضارة الاسلامية التي قامت في ظل شرع الله القويم .

تملينا ذلك ونحن مكشوفون للمطر الذي بدأ يخف ، غير قطرات متناثرة

متبعثرة تقع علينا هشة ناعمة ــ لطبيعتها بجانب قلتها ــ حتى ما نكاد نحس بهـا جميعاً • فسرنا يقتادنا الدليل حيث انتهت المواقع وختمت المواضع ، فانتهت زيارتنا للحمراء أو كادت ، فسرنا للخروج سالكين طريق الوقوف الذي كنا فيه •

سرنا في طريق طويل لا يكاد يتضاءل أمام ما رأينا لأنه يقدم فنوناً أخرى من الزينة الخضراء من مغارس ملتحمة ضربت بأشكال متنوعة مقطوعة كحيطان عريضة مستطيلة مستوية تتخللها فتحات مداخل ومخارج ، تحف الطريق وما حواليه لا سيما جهة اليمين •

وبالقرب من مكان الوقوف السابق وبعده رأينا شجرة ضخمة عالية مائلة من فوقها كأنها تشير إلى ثقل السنين الغابرات ، بدأ الجفاف الذي دب في أعلاهـا أن يصيبها بالذبول • وقد لا يشكل هذا عليها خطراً ما دامت جذورها سليمة واصولها قويمة ، وهكذا الأمور والأمم والأجيال وهي بذلك تخلف جيلاً أميناً يستمر في حمل الخير فكانت تلك الشجرة واحدة من المعمرين وأحد المآثر الباقيات وبقية من عقيلات الجنان • شجرة تسمى السلطانة ــ حسب ما ذكر الدليل الغرناطي ــ وعمرها سبعمائة عـام ولعله سيطول فسبحان الله جعل لكل خلق خصائص وأحوال تفرقت أو اجتمعت في مخلوقاته ميزتهـا بطابع يناسبه ويحتاجه ويقيمه • وإذا كان في مخلوقات الله الأخرى ما لم يألف أحد في نفسه فذلك من حكمة الله تعالى الـذي وضع هذه السنن وهو القادر وإرادته نافذة وأمره في كل شيء ظاهر • فكان في عمر هذه الشجرة ــ وهي ليست فريدة ــ عبرة وخبرة وبيان • فهي ــ على ذلك ــ تكون قد غرست في مطالع حيـاة مملكة غرناطة ، وإنهـا تحمل أنفاسها وأعطارها وأخبارها لو أمكنها لأفصحت مع ما أفصح حالها ، وهي تحيا ببقية من عمرها المديد بعدما طال ندبها على الذاهبين من البنين في غابر القرون •

سرنا في طريق قلما ترى مثله جمالاً وأناقـة وروعة ، وتود أن يطول ما دام فيك قوة على المسير الذي تزداد حماسة له ورغبة فيه واستمتاعاً به ، وهـو طريق تحوطه من الجانبين على طوله اشجار السرو العالية المتراصة المتلامسة بخضرتهـا

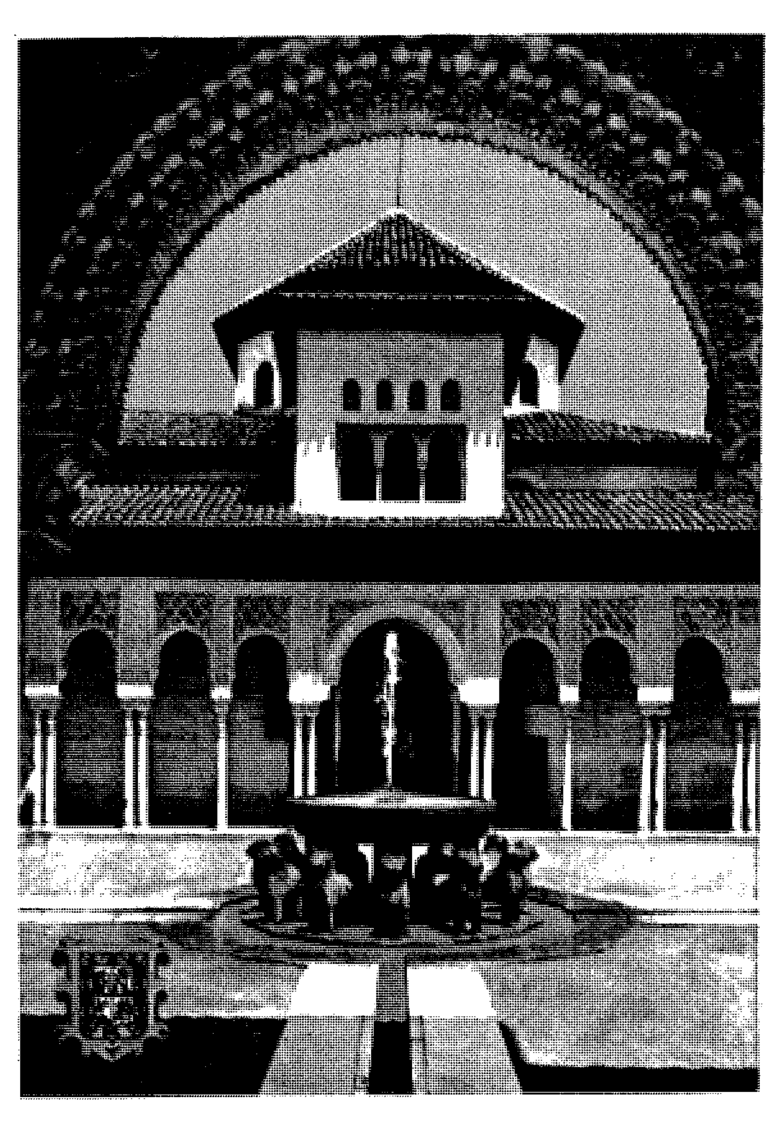
الداكنة وتحس بازدياد تعلقك بها والمطر البطيء يتناثر عليها وعليك فتضمه وتحتضنه تحجبه عنك أحياناً وتناوباً ولا يحجبها أو يحجبك • فسرنا مستمتعين بكل ذلك في طريق منحن طويل ومنحدر محفوف بهذه الأشجار رفيعة الرأس وعالية البأس وهادئة الحس وهي كذلك منذ ما يدنو مـن قرنين مـن الزمان على نسق مما كان أيـام الأهل والأحباب الساكنين هنالك في تلك الأيام • حتى وصلنا البوابة للخـروج فاجتزناها إلى الحافلة التي كانت على مقربة قبالتها • فاقتربنا منها وما نكاد نودع ذلك المكان ولكن لا بد منه ولو لذلك الآن ، وقد بدأ المطر يزداد • وبينما نحن نصعد الحافلة بدأ الدليل يتهيأ لأخذ طريقه ، فودعنا وودعناه وكأنه كانت معرفتنا به أكثر من تلك الساعات التي حملت بعض أخبار وآثار وثمار القرون إلينا ، وودعه البعض بمجموعة من كلمـات الوداع الاسبانية التي تعلمها العديد من مجموعتنا وكانوا يكثرون من تكرارها لتثبت ولعل بعضها ما يزال باقياً •

سارت الحافلة في طريق من طرقات الحمراء المخضوضرة الاثواب المتنضرة الأرداء كالأروقة المسقوفة بالأشجار ، واستمرت القافلة تنحدر في طريق هابط نحو غرناطة المدينة قرب وقت الغداء حتى توقفت في أوائلها ، وكان المطر الذي يشتد لم يعوّق قضاء المرغوب من الحوائج لاسيما وقد شهدنا وعرفنا محلات بيع الصناعات اليدوية الاسبانية فتدفقنا اليها نغترف منها ونفرغ الجيوب لها وقابلية الاغتراف عند الاخوات عالية كالعادة •

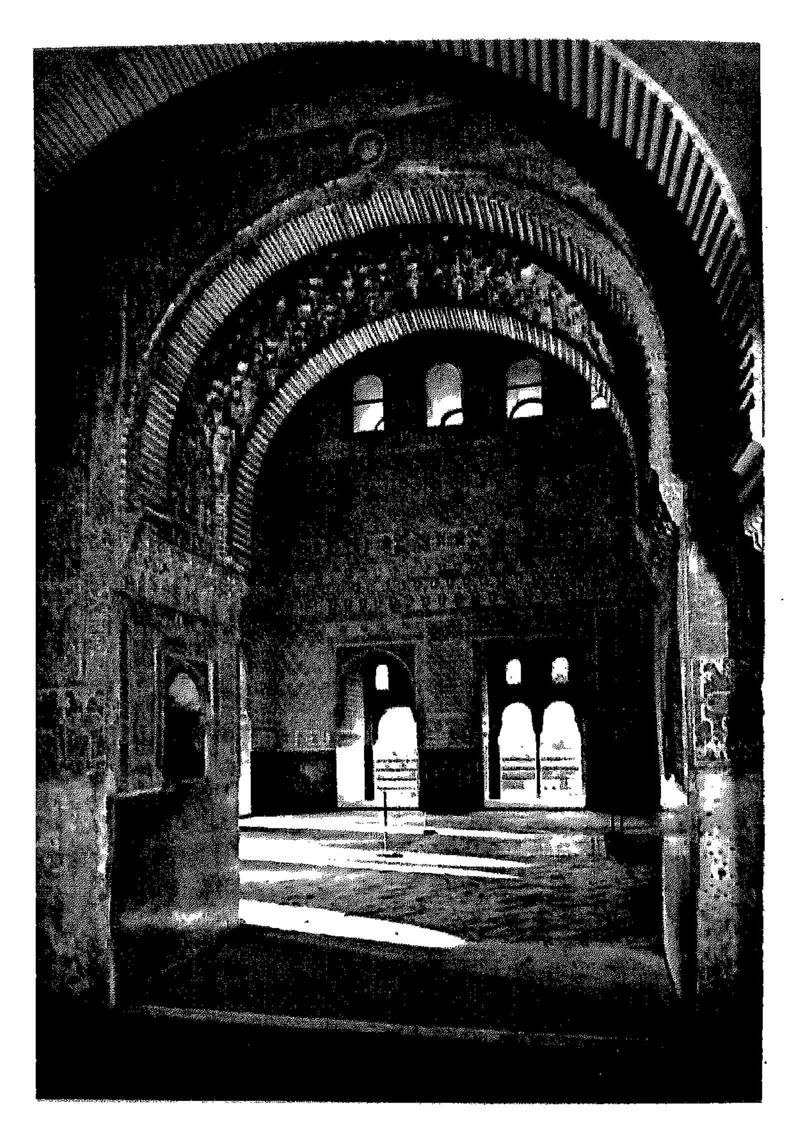
ثم اتجهنا للبحث عن مطعم هادىء مريح حيث حمدنا الله تعالى على كل النعم ، فتناولنا وجبة شهية • ولم نجد أفضل من ذلك المكان لأداء الصـلاة قصراً وجمعاً لتستقر النفس بغذائها والبدن لراحته فيسعد الانسان ويهدأ ، فطـال مكوثنا في المطعم •

كان لدينا من الوقت بعضه لنرحل فاستهلكناه على مهل فتناثر عقد المجموعة هنا وهناك ثم التأم بعد حين في الحافلة مستودع الافراد اكتملوا عند الغروب وهو محجوب بالسحاب المطير •

سارت الحافلة تتهادى صحبة دليلة الطريق أتحفتنا بمعلومات طواله من مدريد، اتجهنا إلى قرطبة لنصلها منتصف الليل ، فبتنا في نزل بها بعد ما نال التعب منا حقه منتظرين اختفاء الليل — بعد نيل الراحة مستمتعين بنعمة الله فيهـا — بدثار صبح مضيء يتنفس كالربيع في يوم كريم ، وهو ربيع نحن وإياه على موعد بترتيب معلوم وحظ مقسوم لنحقق — بعون الله تعالى — من الأمنيـات مالذ وطاب بالانتعاش الهفيف وعلى هدي حس نظيف برؤية نفس مهتدية بنور الله تعالى في ذلك اليوم البهيـج .



ساحة الأسود «السباع» رابضة في الحمراء



بهو السفراء في الحمراء بزخارفه البديعة

العودة إلى قرطبة ومسجدها

لعلك ــ ايها القارىء الكريم ــ تستروح النسيم المنعش من ثنايا تلك الأروقة الانيقة وحنايا المنحدرات الخضراء العبقة وتحت ظلال ذكرياتها وما عرفت عنها ، ونحن ــ وفد طالبات جامعة الامارات ــ تتجول بين معالمها وتتحول في مواقعها ونطوف في دروبها خلال الاحاديث السابقة لترى ما يتم في تالي الاحداث وتتابع تماتها لتكتمل الصورة عندك وتتصل المعلومات في عقدها الانيق لديك مزينة باستطرادها واطرادها في روايتها للمشاهدات التي أخذت بالقلم يتحسس أهميتها في التعبير عن اوصافها عبر ازدحام الأحداث فيها ، وهي تكشف عن حالة شموخها القوي وعزها الأبي تستلهمه من نصاعة وصفها وصفاء رونقها فيما تبقى منه أو يدل عليه حالها .

عند بواكير صبح جديد من ربيع النبوي يوم الأحد التاسع عشر منه (١٩٧٨/٢/٢٦) صحونا ونحن في نزلنا في أحد أحياء قرطبة العتيدة التي سبق أن مررنا بها في رحلتنا إلى جنوبي الأندلس على أمل العودة ، وقد حقق الله ذلك بفضله فجئناها ليتم افتتاح الأمل القديم إذ زاد تطلعه قبل الارتشاف المتهيء ، فأغلقت نوافذه وحبست معابده على تدفقها تنتظر الإفراج وها قد حان . فتهيأنا فابتدأنا زيارة تلك المواقع وملامسة هاتيك المرابع وهي تتحسس آثار السير عليها وبقية الخير لديها ، تتسابق استعجالاً وتتطلع بخفة إلى اللقاء بها ، وفاءً بالشوق واستجابة لنداء القلب وانسجاماً مع متطلبات الذات .

هجرنا مرقدنا لنقوم بين يدي رب العالمين والقرآن ربيع القلوب وري النفوس ورفيق الخير المتدفق في كل وقت وعند الأسفار لنستقبل يوماً غنياً بما يحمله من لقاءات حبيبة ــ وهي حبيسة الأيام ــ لما يتم فيها من انجاز حين لاحت خيوط

الصباح وتنفس الضياء ترشفه الأرض من أشعة الشمس وهي ترسل خيوطها اللامعة تحمل الدفء للأرض بأمر الله وتسخيره تقدمه للانسان وغيره خير غذاء •

ولما تم استعدادنا خرجنا تاركين الفندق نحو الحافلة لتأخذنا إلى ظاهر قرطبة ، نستحثها على السير ونهمزها على الاندفاع نحو ما نريد • فانطلقت متهادية في طريق نحيف بين الغرب والشمال في صبح يوم لا مطر فيه ، ولا تظهر الشمس في افقه ولا تغيب ، نحو مدينة الزهراء المدينة الخليفية بالأندلس في القرن الرابع الهجري • وطول الطريق بآلاف امتاره العشرة أو تزيد ونحن تتشرف وتتشوف ، تتطلع النفس اليها والى ما يدل عليها من اشارة أو عبارة ولو فاحت علينا بروائحها أو امتلكت عيوننا نظرها لارتوت به قبل الوصول • وهكذا كنا نستطلع المواقع ، والأرض ترتفع بهدوء ونحن نقترب من جبل تسكنه الاشجار وتغطيه الخضرة •

بدأنا نلمحها حتى دخلت الحافلة عنق طريق فوق سفح جبل تظلله مباني متناثرة تم التعرف عليها ، انها مدينة الزهراء •

أخذنا طريقنا نحوها وابتدأنا الدخول تتعجل السير لرؤية ما تبقى من معالمها العمرانية ومرافقها وأجنحتها ، بعد أعمال الحفريات والترميمات لتعيد ما يمكن من انقاضها المدفونة أو استحضارها مما بقيت من اطلالها المركونة لما هو أقرب الى أوصافها عند المؤرخين والكتاب الاندلسيين شهودها العيان ومن نقل عنهم • ولمدينة الزهراء قصة أو أكثر ، مطربة في الاحتفال ببنائها وتجميلها والاهتمام بمرافقها والعناية بزخارفها وفنيتها وحدائقها ومباهجها ، ثم اندثرت بعد ذلك إلا أن التنقيبات والترميمات والدراسات ابتدأت منذ أوائل هذا القرن •

تولى عبد الرحمن (الثالث) بن محمد الناصر لدين الله حكم الأندلس سنة ٣٠٠ هـ ولمدة نصف قرن زادت به الأندلس ازدهاراً في كل الميادين حتى غدت أكبر قوة حضارية في أوربا واكبر معبر لمرور جوانب من الحضارة الاسلامية اليها • وهو الذي اعلن الخلافة الأندلسية ــ وكانت إمارة ــ سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) فازدحمت الدروب نحو الأندلس وحاضرتها الأم قرطبة بالوفود القادمة لاسيما من أوربا خاطبة

ودّها ، أو طالبة علمها أو حاصلة لمعاونتها ومعونتها فيما تبتغي منه وتحتاج إليه أو مظهرة الولاء لها • فرأى الناصر ان قصر الخلافة بقرطبة ــ الذي زرناه فيما بعد ، وسيأتي الحديث عنه ــ بدأ يضيق بهذه الوفود وبمهام الدولة ودواينها • وإيذاناً باقامة دار للدولة أوسع وافخم لا يضايق العاصمة أو يزحمها تقرر ابتناء مدينــة خليفية خارج قرطبة تستوعب مهمات الدولة وتتسع لايواء وفودها والاستقبالات الرسميــة •

ابتدأ بناء مدينة الزهراء المدينة الخليفية سنة ٣٢٥ هـ وكان الانتقال اليها بعد سنوات قليلة ، حيث اقيمت أول صلاة جمعة في مسجدها ــ بعد تمامه ــ في شعبان سنة ٣٢٩ هـ ثم تتابع انتقال دواوين الدولة الأخرى ، وإن كان تمام استكمالها لزخارفها وتجميلها وملحقاتها استمر بعد ذلك طويلاً • وتضم الزهراء قصر الخليفة وديوانه الرسمي ودواوين الدولة ووزاراتها وسكن الوزراء والامراء وابهاء استقبال الملوك والسفراء والوفود واجنحة اقامتهم وسكن القادة والجند وحدائقها ومتنزهاتها وبقية المدينة وسكنى أهلها الآخرين حتى غدت مدينة قائمة بذاتها بكل مقوماتها ، محافظة يرأسها صاحب المدينة ولها مهماتها الاخرى ، كما يذكر انها كانت تحتوي على حديقة للحيوانات •

اقيمت مدينة الزهراء في منطقة تعرف اليوم « قرطبــة القديمة » عند سفح مرتفع صخري متدرج هو « جبل العروس » جزءاً من جبال قرطبة ، الممتدة بجبال سيرا مورينا (جبل الشارات) • وجلب مهندسها مسلمة بن عبد الله الماء اليها من جبل قرطبة داخل أنابيب الرصاص والحجر خلال الجبل تروي دورها وحدائقهــا واماكنها الاخرى • وهو ترتيب بارع لا يؤكد علو المستوى الهندسي المعماري فقط بل وسبقه المبكر ويدل على دقته وفنيته واشتماله على التفكير المدني الرؤوم وتعميمه بحرص كريم ، ومثل هذا جرى في قرطبة ومسجدها الجامع وغيره •

وحين ابتدأت مجموعتنا دخول مدينة الزهراء من بابها المواجه للجبل وعرف به « باب الجبل » وبلغنا بعدم لمس مبانيها أو مشتملاتها وزيارة أماكن محددة منهــا لتناثر القطع الكثيرة المتنوعة الأحجام والاشكال بزخارفها واستمرار العمل فيها ،

فالتزمنا بذلك وشكرناهم أن سمحوا لنا بالدخول • وفعلاً رأينا عمالاً يقومون بتركيب بعض القطع على روية وعمل ومهل وتلبث،كما شاهدنا في أكثر من مكان قطعاً واجزاء مصفوفة تنتظر التنظيف والتنظير والتوصيل • فسرنا نازلين على مداخل ومدرجات متعددة ومنخفضة ، ترى تطابق ذلك مع ما قد تكون قرأت عنها من ان أقسامها مدرجات يقع القصر الخليفي ومسكن الوزراء والديوان أعلاها ثم المسجد والحدائق بعدها يليها الجند ومساكنهم وسكان المدينة عندها • واستمر بنا السير خلال مدرجاتها تتفحص أبهاءها وباحاتها وأروقتها وهي متفاوتة الاستكمال حتى نزلنا أسفلاً فوقفنا نتملاها ونستعيد تاريخها وندقق روعتها وقوتها وتتأمل العبر منها وهي تعاد الى هيئتها أو ما يقاربها بجهود كبيرة يبذلها العلماء والفنيون والمهندسون الاسبان • وقد اعيد الكثير منها وبعض الأجنحة والاروقة ، وبعض الابهاء يكاد يأخذ شكله النهائي في أقرب صورة ، الى ما كان عليه •

وكنا في كل هذه القطع نرى صوراً من مآثر الفن المعماري الاسلامي الاندلسي بروعته الفنية الجمالية وألوانه الزاهية المتناسقة وهندسته المعمارية القوية في تلك العقود والزخارف والرؤوس والأعمدة البيضاء المرمرية أو الملونة • وكنا نحاول ان نفرق بين قطع مدينة الزهراء الاصلية والاخرى التقليدية التي تصنع على مثالها ، فنجد الأولى أكثر روعة وبأجمل الألوان وبأرق صناعة تذوقية وأناقة فنية ودقة جمالية ، رغم قدم العهد وأثر الهدم وتهدد الاندثار • ومن المواقع الجميلة التي تكاد تأخذ شكلها التاريخي النهائي الجميل « جناح الملك » ، وهو دار ضيافة الملوك والسفراء والوفود تستقر فيه قبل استقبال الخليفة لهم في قاعة السفراء التي تعرف بـ « المجلس المؤنس » • وهكذا بقينا نتجول وتتفحص ونستنتج من خلال ما نرى مدلولات تاريخية وفنية معمارية وانسانية تقوي المعاني الحضارية التي قامت على البر والتقوى فأثمرت خيراً وأينعت فضلاً أقامتها شريعة الله تعالى والأخذ بمنهجه في أجيال وأجيال أخرى ، تعاورتها عوامل الحقد المحيطة مكنت قدمها وأنفذت سهامها وهدمت عمارته تقصيرات قلت أو كثرت رغم الجهاد الطويل لأمة الجهاد التي

لم تكل ولكن أودى بها تقطيع غالب في أحيان أو لهو ناكب في غيرها ، فتكالب العدو عليها وأصاب مقلبا ونال مأربا • لكن حياة الجهاد في كل ميدان كانت ظاهرة باهرة وعامرة غامرة •

وبعد أن توقفنا في العديد من أفنائها وساحاتها تتداول بعض أخبارها تطل علينا مرابعها حيث تشرف عليها مبانيها ؛ قمنا بأخذ صورها واتجهنا من حيث دخلنا ننظر امامنا جبل العروس ومدينة الزهراء من اسفله على سفحه المدرج حتى يصل الأرض الفسيحة في منظر رائع جميل ، فعدنا نخرج من الباب الذي دخلنا منه •

عدنا الى الحافلة لتعود بنا الى الام الرؤوم قرطبـــة وقلبها الحي مسجدها الجامع ، وبه تحيا الحياة بأكبر معنى خير في الوجود ينير الانسان وحياتــه ، ينعم بالسعادتين في الدنيا ويوم الدينونة لله رب العالمين •

قصة مسجد قرطبة الجامع طويلة ، فهي تمتد مدى قرون متلاحقة منذ ابتداء بنائه سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، أواخر أيام الامير عبد الرحمن الداخل ، حتى سقوط قرطبة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) والى اليوم وربما لم تنته بعد ، وهذه القرون ، التي تزيد على اثني عشر قرنا ، نصفها الأول مليء بالازدهار ومن كل لون والانتصار في كل ميدان،ونصفها الثاني مغمورة في سيول الاعتداء وأيدي الحقد السوداء ومطمورة تحت أنقاض الهدم الجهول والغرور المغرق بالمضحكات المبكيات جالب الأهوال ، ولكن الاصالة طالما استعصت على الضلالة لتفصح ــ رغم انزوائها وانطوائها ــ عن قوة الخير وضد التعصب الأعمى الأبكم الذي أنبت الشر ، وما بقي من المسجد معبر واضح •

بقي المسجد ــ بعد ابتناء أوائل أروقته ــ يتسع كلما كبرت قرطبـــة وكثر المسلمون انتقالاً واعتناقاً حتى غدت مساحته بصحنه المكشوف ومصلاه المسقوف تقارب خمسة وعشرين ألف متر مربع (١٨٠ × ١٣٥ م) ، إن أردت تشكيله كله فمستطيل أو أفردت حرمه فمربع •

يقع مسجد قرطبة الجامع في جنوبها الغربي قرب قنطرة قرطبة العظيمة على الوادي الكبير ــ وقد مررنا بها في هذه الايام ــ والى جواره الغربي قصر الخلافة القرطبي وحدائقه الواسعة اليانعة •

وكان المسلمون قد ابتنوا ، غداة الفتح الاسلامي لقرطبة سنة ٩٢ هـ ، مسجداً سهلاً على أرض بكر خططه وسدد قبلته التابعي المجاهد مهندس المساجد في الغرب الاسلامي حنش بن عبد الله الصنعاني وكان مع الفاتحين • ثم أقام الداخل عنده مسجد قرطبة الجامع الحالي القائم الذي اتسع مع الزمن حتى غدا درة مساجد العالم الاسلامي وجامعاته العلمية المشرقة ، سعة وفناً واتقاناً ، أثار إعجاب مَن زاره من الكتاب والرحالة والجغرافيين المقيمين والقادمين • وبقي وصف الكثيرين منهم بين أيدينا حتى اليوم أمثال ابن حيان القرطبي (٤٦٩ هـ) في مقتبسه ، والإدريسي (٥٦٠ هـ) في نزهته وابن عذاري (٧١٢ هـ) في بيانه • ولم يقم هذا المسجد فوق كنيسة قديمة أو جديدة كما يردده البعض متعجلين أو مقلدين أو متحيزين وكما ترويه النشرات السياحية الاسبانية وأدلاء السياحة الذين يستقبلون كل سائح وزائر •

لكن ما يحمله المسجد فوق حناياه وفي ثناياه وبقاياه وفي ما اندثر منه قصة التجني والاعتداء عليه والعبث به ، وهي ماثلة لكل زائريه •

مَعَ المَسْجدِ القرطبيّ الجامِع وَقِصَّته

وفي هذا اليوم نبقى ملازمين مسجدنا القرطبي الجامع تتطلع الى قصته ، خلال رحلتنا ــ وفد طالبات جامعة الامارات العربية المتحدة ــ بنفحاتها الفياضة ، لنعرف قصته بكليتها وما شاهــدناه في زيارتنا لــه وتجولنا فيه وتقلبنا في أنحائه ونحن مأخوذون بما بقي من روعته محزونون لنكبته ، نستعبر تاريخه غــابراً وحاضراً ، نبصر حاله ونرنو مآله مؤملين مستقبله •

فمنذ سقوط قرطبة بــدأ التشويه في المسجد ، وكان هــذا وأمثاله يتم رغم المعاهدات التي تعطى للمسلمين بعدم الاعتداء على المساجد والساجدين • فتحول المسجد إلى كنيسة وطرد الساجدون من مدينتهم • وقد أرادوا استباحة دمهم ، وقد كان ذلك نصيب بعضهم • فأخذت التشويهات والتغييرات تجري بمختلف الألوان والاساليب • فنصبوا العديد من الهياكل وأزالوا بعضاً من مقاصيره وقببه وكثيراً من منارته وأجزاء منه ومواقع ، واغلقت منافذ وأبواب واضافوا إلى جدرانه وزخارفه ومحاريبه غير قليل ، رسوماً كنسية ومن التماثيل والصلبان وصور القساوسة • وفي أوائل القرن السادس عشر تم إقامــة الهيكل الكنسي الكبير في وسط حرم المسجد الجامع فزاده ذلك تشويهاً وبدل في معالمه الاسلامية فأقل من جماله وحسر من ضيائه وأذهب من فنيته • وإن شارلكان (كارلوس الخامس) الذي جرى ذلك بموافقته وقد فعل مثله في عديد من الاماكن منها مدينة الحمراء ، حيث أزال جزءاً منها لقصره ــ ومسجدها للكنيسة ــ لما رأى هذا التشويه الذي جرى لمسجد قرطبة من جرائه قال : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر وقد قضيتم بذلك على ماكان أثراً وحيداً في العالم » •

وقد أزيل أو سدّ كثير من أبواب المسجد القرطبي الجامع واقتلعت عدة مئات من سواريه التي زادت على ألف وأربعمائة ، وإن بقاياها مازالت تبدو غابة أعمدة مرمرية أو رخامية ذات ألوان عدة .

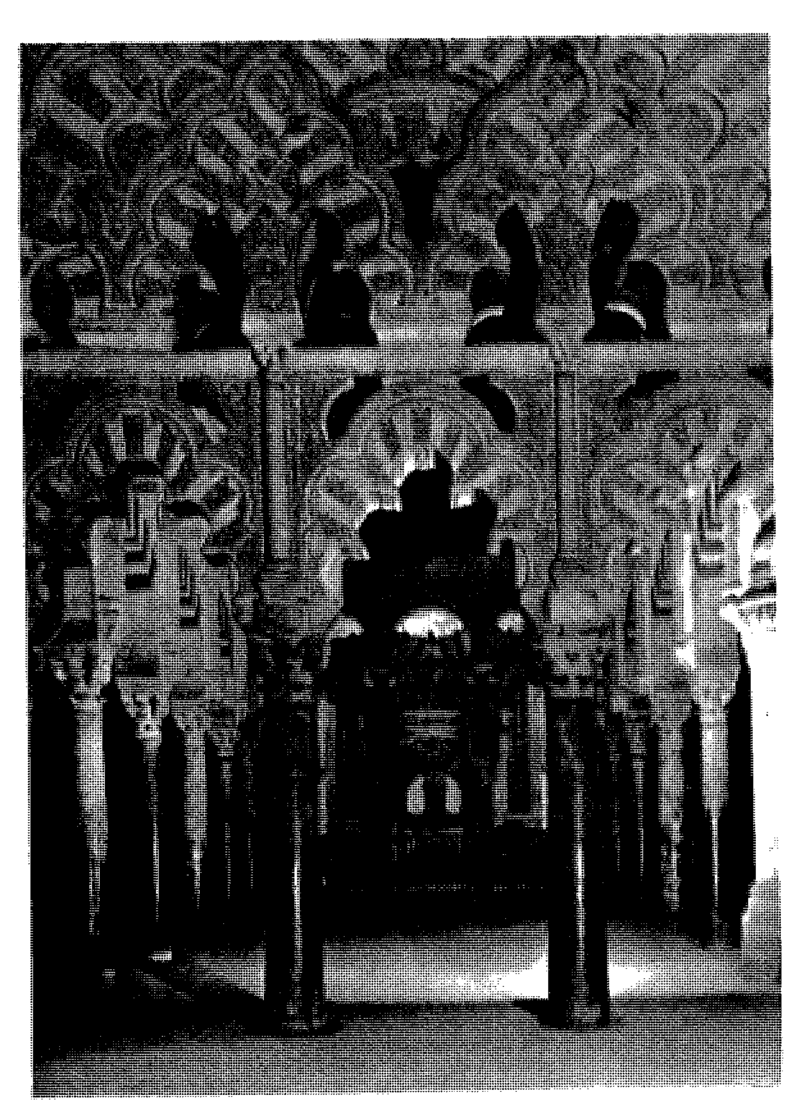
استقرت حافلتنا بجوار المسجد العتيد الوحيد عند حائطه من الواجهة الغربية، غير بعيد عن ملتقاه بركن الحائط الجنوبي المواجهة لنهر الوادي الكبير قبالة القنطرة الشهيرة . ولموقع مسجدنا أهمية كبيرة إذ يمثل قلب المدينة المكاني كما هو قلبها الحياتي الإنساني . ويسمى مسجد قرطبة الجامع بالاسبانية كما هو بالعربية ، ولكن بنطق إسباني وبلكنة معهودة إذ أن أسماء الأعلام الاندلسية المتبقية وبعض المصطلحات وكلمات عربية كثيرة بقيت في الاسبانية تسمعها وقد تدرك أصلها ، وإن نسبة الكلمات العربية اللغوية في الاسبانية ـ احدى بنات اللاتينية ـ قد تناهز عُشر كلماتها .

تعجلت مجموعتنا نازلة من الحافلة لتسير في شارع رئيسي لقرطبة المسلمة ، يفصل المسجد الجامع من واجهته الغربية وبين القصر الخليفي أمامه . وكان اسم الشارع على عهدها الأمين المنير الخيِّر « المَحَجّة العظمى » . يواجه في امتداده قنطرة الوادي الكبير المجاورة ، فنعم الجوار جوار الأهل والأحباب ألّف بينهم من الله كتاب . وكان يستمر امتداد شارعها نحو شمال قرطبة يخترقها من الوسط وعلى طولها وحتى سورها عند ذلك الاتجاه .

أخذنا طريقنا بأعدادنا متتابعين إليه فدخلناه من أقرب باب أدركناه ، من غير انتظار لوصول الباب الرئيسي في جداره الشمالي عند المئذنة ـ التي قطف رأسها وأزيلت جوانبها ليكون موضع جرس الكنيسة ويتبع ذلك باقيها ـ وتشوه منظرها وزال رونقها . بعد أن توقف نداء الله فيها نداء الكون الأصيل وهتاف الوجود ونشيد الانسانية الخالد ، تتبادله أنت واياها نظرات الحنان الحزين وعبرات الحب الدفين من خلال تبادل الأشواق واللقاء بعد طول الفراق . فراق القرون مظلمة سوداء تعبرها بطيئة وئيدة ، أمحلت أرضها وأوحشت دربها واقفرت احياءها إلا قطرات تهتز لها ، أمسكت خصوبتها إباءً وأكرمت رحمها استعلاءً ، تتغذى بها



منظر جوي لمدينة قرطبة ومسجدها الجامع ومئذنته وحديقته



محراب مسجد قرطبة الجامع الذي بناه الحاكم المستنصر بالله

كصائم كريم وعابد زاهد لاذ بالقناعة وهو أبي عفيف • تكاد تظلل ابناءها وتخصهم بأفيائها وتسمعها حسراتها • لكننا نحتار في الجواب لاندري أين تنظر أم أين نضع الأيدي ومازلنا على الباب فكيف سندخل مسجدنا ونلقاه ، أم نحتضنه ويحدثنا ونحدثه • ومن منا أبلغ في الكلام وأوعى لحقائق الأيام في استرواح معاني الاسلام• كانت نفوسنا ممتلئة تزداد بفيض ذلك وغيره كلما اقتربنا ، حتى لولم تنفرج الشفاه عن كلام أي كلام • وقد تتسمر الكلمات على الشفاه وتتجمد بالعيون العبرات • وكم من صمت يفيض على النفس والمحيا ، تقرؤه فيها وفي تقاطيعها ولونها وقطراتها ما يعد تعبيراً قد يكون لقوته وتدفقه وكثرته يبحث عن كلام سينطق إذا انجاب اللثـــام •

دخلنا المسجد الجامع من تلك الباب الغربية لنواجه صمته أو فناءه المكشوف وكان واسعاً جداً ويسمى فناء النارنج ويسع من المسجد كله ثلثه ، وتظلله هــذه اشجار النارنج والبرتقال بجانب بعض النخيــلات والنافورات • وتشجير أفنيــة المساجد في ديارنا تلك عرف اندلسي في تزيين صحونه ، ارتضاه علماء الفقه الأوزاعي الذي كان عليه أهــل الأندلس أولاً ، وبقي هــذا العرف على ذلك في الأندلس فيما بعد •

وكان في وسط هذا الصحن ميضآت وصهاريج ، تمدها بالماء الذي لا يتوقف عيونُ جبل قرطبة توصله إليه أنابيب الرصاص داخل قنوات حجرية متقنة ، ولم يعد بعد أسره وقسره من ذلك شيء •

سرحت عيوننا وتطلعت نفوسنا واشرأب الشوق طافحاً متعجلاً كأن لم يرو نهمه من هذا الصحن الظليل بالشجر البليل لبقايا المطر ، آثاره باديــة في الارض المرصوفة بالحصى • فسارت مسرعة نحو حرم الجامع ومصلاه • فاتجه سربنا نحو بابه الرئيسية « باب النخيل » ونحن ننظر إليه تتدافع الانفعالات ، أهي استفسارات أم تطلعات تكاد تتساءل عن كل شيء وكأنها لاتنتظر الجواب ، إذ ترى الحنان المتدفق الوثــاب • رأيناها باباً عالية غير بعيد ونحن نتلفت إلى حيطانه حتى وقفنا أمامهــا وعند المدخل قبل الوصول إليها في أول إطارها المقوس رأينا حوضاً صغيراً يوضع فيه ماء التعميد ؟!

كان الباب مغلقاً فدخلنا من باب جانبي ونحن لاندري ــ كالمبهوت أو المبهور ــ في أي تجاه نسير. وكل جهة وعمود ومحراب يدعونا أن نبدأ به، جمالاً واستقبالاً، ليطفىء شوقنا الظمآن وحرارة اللقاء الولهان ولهف القادم المتوثب • وتوزعت مجموعتنا في أكثر من اتجاه اختارته كل جماعة، كأنها لبت أشواقها واستجابت لرغباتها وخبرت حياءها •

يا لله ماذا نرى! حقاً إنه غابة ساريات المرمر وأعمدة الرخام، بدقتها المألوفة ورقتها المعروفة وقوتها الموصوفة التي حملت السقوف والقباب العالية إلى نحو عشرة من الامتار • وكل ذلك بأجمل الألوان، في أي اتجاه نظرت الى مدى بعيد على امتداد، بكل رشاقة وانسجام وتذوق، يشعر أن ذلك ــ رغم جلاله وجماله ــ انتقص منه وما يكاد دوماً يبين لشدة حيائه أو إبائه • لكن هذه الاصالة المقهورة تغالب ذلك التشويه الهمجي المتوحش المتقمقم المقصود المخطط التي لم تنل من شموخها الواضح رغم عمليات الدس والطمس، وهي تصطرع فتراها قائمة تنفض عنها غبار الصليبية العمياء والجاهلية الرعناء، تكاد تراها لاتخلو من أثرها الصغار • ولولا هذه الأصالة الأصيلة والجلالة الرفيعة والفنية المتفتحة لما احتمل هذه الأعمال التي لاتزيده إلا تشويهاً كلما زادت ولما بقي من رونقها شيء ولما عدت تلمس فيها ما يدل عليها غير أكوام حجارة ومبان منهارة، ولكنها أصالة بالغة وفنية رائعة وجمال خلاب • إنه أصيل كأهله قوي كمريديه لم تغلبهم المتاعب أو تصدهم المصاعب، ماداموا بأهدافهم مرتبطين وعلى العهد قائمين وبشرعة القرآن عاملين • فكان هذا البناء وكل بناء وبدون ذلك فلا غناء •

وحين يبدأ نظرك بالاستقرار وأنفاسك بالهدوء وفكرك بالتروي، ترى أي تشويه يقززك ويدفعك لاحتقاره ويحوز اشمئزازك وينفرك • وهو شعور عام يتحسسه ألوان الزائرين وأشار إليه أحد الباحثين الغربيين فجعله « أشنع عمل همجي » ضد هذه المأثرة العمرانية، أصابتها كما أصابت اخواتها • فإذا ما تفحصت جوانبه وأبصرت أنحاءه ودققت أركانه يداخلك الحزن وتمتلكك الحسرات فتزفر تنهداتك الصاخبة •

فإذا مددت بصرك وسط هذا المسجد تجده يرتد إليك أو يصطدم بما يوقفه أو يحجبه عن الامتداد حين تقطعه عليك الكنيسة الكبيرة ، هدموا من أجلها الأعمدة وأزالوا القبة الكبرى ليقيموا عملاً مشوهاً وسط حرمهذا المسجد القرطبيالمغلوب، فتحجب النور وتقطع النظر وتعيق متعة الروح والبصر ، بجانب ما أغلقوا من أبواب ونوافذ • فأسرت ضياءه وعتمت أرجاءه وأثقلت هواءه ونالت بذلك من خصيصتين رائعتين تفصحان عن ارتقاء هندسة البناء ورفعة المستوى الفني للعمارة فيه وأصالتها في الملاءمة والتحمل وجودة الاعداد الجمالي وقابلية الانطباع باليسير الخير ، من غير اصطناع ولكن الالتفات الى الانتفاع بما حولها بأعلى درجة وفي ذلك الزمان ، بما قد لا يتيسر بالوسائل الحديثة أفضل منـــه • وتلكم هما التهوية والانارة ومعها الحرارة الكافية بالاسلوب المطبوع لا المصنوع ، التي تغذيه من بين جدرانه وقبابه وأبوابه • وكذلك كان من أثر هـــذا التشويه ـــ الذي أصاب مسجدنا القرطبي ـــ على زائريه أن عوق تقصي المتعة وإدراك الروعة وأورث الحيرة في الاهتداء الى خير طريق لتناول زيارته والتجول فيه حين أضاع انسجامه وأدنى أعلامه •

يا مسجدنا القرطبي الأبي هـــذه كلماتي أزفها إليك ففيها من نفحاتك الميمونة تمد وتقود وتغذي وتجدد وتقوي وتمهد •

أيها المسجد المحزون : أنا مثلك ، أشاكلك وأشاركك وأشاكيك،ربما أنا أكثر، لأنك ماقصرت وأنا أحمل التقصير ، ماسبق منه ومالحق • يزورك أشكال الناس ، وكلهم يعجبون أو يرتوون ، ينسون أو يتذكرون بعد أن يتركوك • فلعل البعض منهم قد أقفلوا على أنفسهم أبواب الحنين ومنافذ النور ولو فتحوها لأعادوها •

إذا لم تمتلىء النفس فكل إثارة قد تكون موقتة والاحساس ضعيف لكني أنا هنا ، بك متعلق وعليك مقبل ومنتسب نسبك أريد أن ألثمك • أنا قادم إليك بقلب عاشق خدوم ، سيبقى أميناً على مأربك ، ولعلي أخفف من غربتك وإن كنتُ غريباً مثلك ، وأهون من وحشتك واقصر من بعدك وأونس مـــن وحدتك • فيقر بعض قرارك واستعلن قراري في حبك وابلاغ دعوتك ، أملأ بها القلب واهوى بهـــا العمل

وأرنو الطريق وأكشف الظلم وأزيل الطواغيت والقوى المهازيل • وأبني ما تهدم وأعمر ماتصرم وأعلن العهد الجديد • فها أنا اصافحك واضمك واعانقك ، فمد يديك وافتح ذراعيك وخذني إليك • لك الحق كله ، مجيئنا ليس مثل غيرنا • إننا من جيل يعرف قدرك تيقظ لأمرك واستعد لرسالتك • جئت هنا وأريد أن أمسح من حزنك وأزيل من أساك وأحمل بشراك ولابد أن أسطر الكلمات ، ان كانت مجردة لكن ليس كل ما سطر كلام ، ولا كل كـلام يسطر على الدوام • وأعلمك أن جيلاً من المسلمين استيقظ وأن روحك الجديدة العتيدة التي عرفتها تنمو ، ولا بد أن كثرة من هذه الأنفاس مرت بك وقالت لك مثلما أقول ، لكنها اليوم تجمعت وضمت لترفع أعـلامك وتعلي رايتك ويعود نداؤك يخترق الأجـواء ويشق الأنحاء ويسير في الخضراء والبيداء بأرق نداء حمل إلى الأرض المـاء وإلى ساكنيها الغذاء ، لتقوم الحياة كأنقى حياة كما ألفت وعرفت وعشت وانعشت ، وهـا نحن أمامك نتملاك ونهواك ونسعد بلقاك • فلتنفرج أساريرك وتنطلق أنفاسك وتتحدر من الله بركاتك ، فلعل قدوم هذا الموكب الميمون على الدوام إلى دنياك غير بعيد ، فانتظر وإنا معك منتظرون •

ستأتي ـــ إن شاء الله تعالى ـــ أقوامك وستقبل أيامك وترتفع أعلامـك غير بعيد ، حتى لكأن الناس يرونها وإني معهم لأراها قادمة بعين الخيال ، منظورة من بعيد بأبرك الآمال ، إن لم تكن بعين الحقيقة • وكم في دائرة الحق من تلك رأيناها عاشت في الناس حقيقة أكبر حقيقة • حقيقة وحيدة غالبة صائبة غدت مكمن الآمال على الدوام وحصن المآل بعد عالم الزوال « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » •

وَلنا في جنبات المسجد القرطبيّ جولة وصولة

تناثرت مجموعاتنا جماعات صغيرة في عدة اتجاهات تسير متهادية متمهلة كما تريد ، تخاطب كل مافي المسجد وتتفحصه وتناجيه وتبادله الخواطر والمشاعر وتهامسه الذكريات والمعلومات وتعارضه الرغبات والآمال . كان كل ذلـك باكتراث شديد واندهاش يحجب التعبير أو يثقله ، وقد يزيده فينطلق هادراً حاراً متحدراً، وقـد تقرأ ذلك في حال الانسان .

وسلكت جماعة منا نحو اليسار باتجـاه الجهة الشرقية للمسجد لتدور معه مقاربة جدرانه ، في وقت ذهبت غيرها تخطو متقلبة في أمكنة منه . في حين كنت تجد العديد لايثبت مع جماعة ، يذهب هنـا وهناك وينفك من جماعة ليلحق أخرى أو يسلكون فرادى ، وفي ذلـك إشـارة إلى شـدة التلهف المدهوش والروعـة الباهرة التي تغريك كل منها بالتملي والتحلي بنظرته ، لاتكاد تفاضل بينهـا . ماذا تنظر وتبصر أم تستدعي وتذكر وترثي وتجبر . اتنظر ألوانه الباهرة المتناسقة وتسرح البصر في أركانه الواسعة أم تتأمـل سواريـه وأقواسه وترنو إلى أسقفـه وقببه ومحاريبه أم ترى شبابيكه وفتحاته وتختبر أرضـه وتبليطه أم تتفحص زخارفـه الدقيقة وفنياته الرقيقة ومناظره الجميلة وهندستها البارعة الفارعة وأصالتها المعمارية وسبقها الزمني المتدثر بقوة الفن والصياغة وجدارة المتانة والأصالة المطبوعـة . لاتشعر معها بالصنعة والكلفة بل بالبساطة الدقيقة الانيقة . أم أنهـا تذكر أمجاده ورواده الذين عبدوا الله وتقربوا إليه فيه بكل أنواع العبادة . بالتـلاوة والصلاة والدرس والفقه والمذاكرة والمناظرة والقضاء بالعدل بين الناس وعقد ألوية الجهاد لتخرج إلى الفتح في أرجـاء البلاد . فتتصور رنين التـلاوة المباركة وشهقة العابد المتبتل وصوت الخطباء يتهادى ، بالحق ناطقاً ، وقراءة الايمان في الصلوات نديـاً

رائقاً وأصوات الاساتذة الشيوخ تنشر الفقه وهم يتدارسون العلم في تلك الجامعة المنيرة وحلبة العلوم الكبيرة وتدعو للخير بحرص ذكي واخلاص حفي ورغبة غامرة لابتناء الحياة عليه في كل ميدان •

وكأنك ترنو ببصرك أو بصيرتك إلى مجالس القضاة في ساحة عدله ترفرف عليها أعلام العدل لاتخاف في الله لومة لائم ، تحق الحق من الغريم مهما كان قوياً وتعيد إلى الضعيف أمنيتـــه فيفتخر داعيـــاً إلى الله منادياً بالاسلام هاتفـــاً بانتصار الشريعة أكثر من وصول حقه إليه ، ومثل ذلك فعل الآخر • فكان ميداناً فذاً احتوى وأثرى كل ميدان ، وعيناً ثرة تغذي جداول الحياة وأ ماً بَرّة ترعى المجتمع وتحنو عليه وتحميه ، وحمى آمناً إليه يؤول الجميع وفيه يجول ، لتخرج جحافله في كل اتجاه حاملة راية الاسلام • أو ماتسمع عنه أخباره المليئة بجهاد الأبرار ومن كل لون •

وإذا بميادين الحياة كلها محاريب ومساجد يَعبد المسلم فيها الله تعالى ويدين بكتابه ويسلكها بشرعه حيثما كان ولعل النفس تود اضطراد استذكار صور أولئك الأعلام وكأنها تدفع بالبنان إلى ماكان من أماكنهم • ففي ذلك الركن كان يجلس القضاة ، وكأني بقاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥ هـ) جالساً للقضاء بعمامته البيضاء وجبته الفارهة يفصل بين المتخاصمين وينصح المتعلمين ويوجه القادمين ، متحرياً للشرع لا يخشى بعد الله فيه أحداً ولو كان خليفة لأنه خاف الله تعالى وسعى لرضاه • أو أراه خطيباً على المنبر واقفاً بقامته الطويلة يهدر بصوته ، ينطق لسانه بما يفيض جنانه فترتوي النفوس في ذلك المسجد العزيز بأهله أكثر مما هو عزيز بفنه ، بل بهـــم وبذلك النوع منهم كان فنـــه ومعهم يظهر رواؤه ، وما يصنع المسجد بذلك وقد غابوا إلا في التدليل على أيامه البيض ، وفي الايماء نحوها بالنداء لها والتنادي باسمها حتى يعودوا اليها • ولكأني بحلقات الدروس حول الأساتذة الشيوخ هنـــا وهناك في هـــذا الركن أو ذاك أو عنـــد تلك السواريات كان يضم مجالسهم ، مليئـــة بالعلم رائقـــة بالفقه ندية بالحب عطرة بالخير • أم أنظـــر إلى ماتبقى من أبوابه فمن هذه أو تلك كانت تخرج مواكب الجهاد تحمل الرايات تهتف بالخير تلفها عزة الايمان تستعد للتضحيات وتسارع متطوعة متحفزة الى الاستشهاد

والناس في توديعها مهللين مكبرين وداعين الله تعالى بالنصر المبين . وكم كان على رأسها وفي أكثر الاحيان الولاة والامراء والخلفاء والقادة تزينه شجاعة العلماء وعلم الشجعان ، تزفها جموع القرطبيين فخورة متطلعة إلى ظاهر المدينة حتى إذا مارحلت عنها تحفها الدعوات والدموع ، تختلط بالاهازيج والاناشيد من النساء والرجال آباءً وأمهات حملوهم وصايا الفداء وشوقوهم إلى لقاء الله ملتحقين بقوافل الشهداء خدمة لدينه ونصراً لشريعته وطلباً لرضاه . ففصلت عنهم وهي تكاد تسبق غبار الطريق وتتقدم بأجسامها مواقع الاقدام ، يدفعها الشوق لحيازة نصر تدفع فيه راية الاسلام مرفرفة في أرض جديدة فيعلو نداء السماء غامراً تلك الأرجاء والنفس من أجل ذلك رخيصة ، أو في رد كيد أو صد عدو أو كف طاغية يحجب موكب النور عن مواصلة المسير حتى يزول الظلام حين تشرق شمس الاسلام ويعمها بضوئه نور الله المبين .

وكانت جماعتنا مثل غيرها كمن يريد أن يحتضن المسجد كله وتحوزه وتجدد امتلاكه وتحميه وتؤويه وتمنع عنه الأذى وتمسح منه التشويه وتحوطه بأذرعها وتضمه إلى صدرها ، فتحول بينه وبين العابثين ، وهل يفي بذلك تقبيله ويفصح عنه لثمه ويعبر عنه معانقته ومصافحته . تتلقاه حبيباً اغترب ومناراً انحسر ضوؤه ، بعدما ناء أهله ، وقائداً غُلِب ورائداً أُسِر .

فإننا ــ أيها المسجد القرطبي العتيد ــ نحس بالمصاب من قبل أن ترنو الينا بالعتاب ، ولك كل الحق فيما تردد أو تقول وقولك الصدق وترديدك حلو جميل يعلو على كل ماعداه ويسمو فوق كل ما أدناه . يغمرنا هذا الشعور ونحن في أحضانك نجول وفي رباك نسيح وفي رياضك تتنقل والحسرة ملء الفؤاد ولكنها حسرات الاباء تمسحها قطرات نداك العبقة وتعطرها نفحات ندائك ، نداء الربيع ماضية في الزمان وباقية على مدى الأيام .

سرنا داخل المصلى وتكاد كل جماعة منا ، وغيرنا من الزائرين ، أينما ينظرون من أطرافه تصطدم نظراتهم بذلك الهيكل المشوَّه المشوِّه الذي يجب أن يلغى من

هذا المكان ويحول إلى أي مكان غيره ، بالنسبة لنا ديناً ولغيرنا فناً . وهل بإمكان السفارات والمثليات والهيئات الاسلامية أن تستجمع الأصوات من كل الفئات ــ ومنها الاسبانية كذلك ــ لرفع هذا التشويه . وهناك خارج مسجدنا القرطبي تجد متسعاً لاكبر من ذلك مادامت هي عبادة الله الذي يعبد في أي مكان أم أنها ستصر على ذلك لأنها مازالت تقهر المسلمين وتقيم عليه من ذلك شارة وإشارة .

فسارت الجماعة الكبيرة من مجموعتنا باتجاهها تنظم أشواقها وتمتلك ترتيباً يعينه على رؤية متتابعة تتجول حــول مسجدها ، ترى حرمــاً كريماً تتملاه وأثراً عزيزاً نأى في موطنــه وهو ثابت رغم القهر القائم مــع البعد وعن مكمنه لا يريم ، مستمر الأمل بانتظار عودة الأهل أبناءً وأحفاداً من كل لون رافعين راية النور جهاداً يجوسون الديار ويركبون ثبج البحار . وكلمــا سرنا وتملكتنا الدهشة المريحــة اعتصرنا الألم لما جرى عليها من التشويه والتمويه ، وعلى الرغم منه كنا نمر على السواري تعلونا أقواسها وسقوفها وكأنها كلها لوحة فنية واحدة رغم تعدد الايدي الهندسية والفنية والمعمارية الكثيرة التي تناولته بنــاءً وتوسيعاً وزخرفة وتزييناً ، لكنها تبدو الآن مثقلة الأطراف مقحمة الأكناف تكاد ترمي بكل جسم غريب طعمة إلى أخيها الغيور والحارس القديم والجار العزيز نهرهــا الوادي الكبير ، ليفتهــا ويجرفها إلى البحر المحيط وإن كان هــذا النهر قد أثقلته أحداث الزمان فعاد أقل رحابة وفيضاناً حيث كانت السفن تصل من المحيط إلى قرطبة تمخره إلى جــوار مسجدها ، وما تكاد اليوم تهم بالوصول إلى اشبيلية أو قبلها ، فما عاد يطيق إذ ضاق صدره وقد فارق الاحباب .

سرنا مع جهة الحرم الشمالية حتى بلغنا جانبه الشرقي . ولما وصلناه نزلنــا بموازاته على طوله حتى واجهنا حائطه الجنوبي وكانت جل ــ ان لم يكن كل ــ تلك المقاصير أو المصليات ، التي قد تكون بعضها خاصة بالنساء ، قد اغلقت وهي مشوبة بالصور والتماثيل ، وجعل بعضها مخزن أثاث الكنيسة وبعضها الآخر بيت القرابين . وهي وغيرها أمور شابت النصرانية ، وما فعلوا فيها أكثر مما فعلوه في المسجد الذي لم يفقد اشراقة التوحيد وجمال ضوئه ورونق بهائه ورقة الفن العتيد ودقته المتأنقة . كل ذلك ونحن ننظر في كل اتجاه نسرح بأبصارنا ونمرح بخواطرنا

وتهتف نفوسنا عجباً وتنتشي طرباً . حتى اذا صرنا على بداية الجهة الجنوبية من المسجد ، والمحاريب على حائطه ، وبعضها شوه ليصلح موئلاً للكنيسة ، وصلنا محراباً مغلقاً هو ما ابتناه الخليفة الحكم (الثاني) المستنصر بالله (٣٦٦هـ) ، فوقفنا أمامه . أنتملاه في فنه أم تتذكر تاريخه أم نستقبل عبره وخبره ، أم تتأمل القادم من أمره ؟! لعلها تشابكت في الصورة لتكون أبعاد المدلول في ظل المعاني الكريمة تقود الى الطريق الحق .

توقفنا أمام هذا المحراب تتأمله بكل مافيه من الفن المنظـور والمعاني الهفيفة والنشوة الروحية، تتأمله والقلب ينبض بمعاني الإجلال والتكريم تحيي هذا المسجد. فلا بد من ظهورها حركة بوضوح خاشعة متلازمة مع معاني النفس ، ترى في خشوع حي متحرك ممتلئاً بالحياة وكانت سجادة الصلاة باليد محمولة وسلاح الوضوء معداً، وفرشت أمام هذا المحراب ووقفت باتجاهه للصلاة تحية المسجد .

التقينا عنده بجماعات أخرى من سربنا وبزائرين آخرين وكلهم ينظرون إلى مناقشة جرت مع مشرف على المسجد إذ منعني من الصلاة ! مدعياً أنها كنيسة ! فكان الرد أنه مسجد ولم لا يسمح بالصلاة فيه !! ثم تركت وما يقول وكان الدخول في الصلاة . فصليت ركعتين وركعتين وربما أكثر إبلالاً للشوق ووفاءً بالحق في هذه التحية . والزائرون من أهل الغرب يفهمون ذلك أو لا يفهمون ولعلهم فهمـوا ، والجماعة تنتظر . فسرنا تتندر أو نسخر لهذا المنع حتى من تحية المسجد ، فيالهـا من حال أو كيف تصفها . أيما وصف تختاره لهذه الأحقاد والأضاليل فإنهـا أقل بكثير من تلك التي أبادت الانسان المسلم وعمرانه وقضت على انتاجه وحضارته ، فلم يفلت غير قليل من هذا الجانب العمراني أو بعض من ذلك الانتاج وما هو مثار إعجاب لروعته وعلو مستواه وأصالة فنه ، وجماله وعمقه . وليس كالمسلمين أوعى له وأرعى لحمايته وأدعى لنصرته من كل أحد غيرهم ، وبالإمكان خدمته عن طريق التعريف به والدعوة لطبعه والأخذ بنشر إنتاجه عن طريق البعثات المتخصصة وأخذ الأفلام الوثائقية العلمية المنهجية لتعرض في التلفزيون وغيره ، والحض على إحيائه للمتبقي مـن مآثره العمرانية والعمـل على نشر ما سلب من الانتـاج الفكري

الثاوي في المكتبات هناك • والدول الاسلامية كلها (عربية وغير عربية) مدعـوة للقيام بهذا كله وغيره وهي أولى من كثير غيرها بالمال والجهد الذي ينفق من غير طائل أو فيه ضر وأذى ، والأمل أن نرى ثمار مشروع لهذا الأمر يانعة نافعة إن شاء الله تعالى •

لقد ذكر ونشر بعد المؤتمر الاسلامي المسيحي الاول سنة ١٩٧٤ المعقود في قرطبة ، وقد نظمته جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية (الاسبانية) انه تقرر إهداء مسجد قرطبة للمسلمين فيها ، ولكن بعد التحري لم يكن من ذلك شيء صحيح ، وكل الذي كان أن الوفود الاسلامية المشاركة في هذا المؤتمر اقامت صلاة الجمعة في مسجدنا القرطبي الجامع الذي مر يومها اثناء انعقاده • وهل ابقت السلطات الاسبانية النصرانية بعد سقوطها مسلماً فيها ، فلمن ستعطيه ؟!

والآن نقول ياليته كان صحيحاً يتولاه المسلمون من أي مكان ويزيلوا عنه آثار التشويه المثقلة والاضافات المقحمة والتحريفات الموجعة وحبذا لو يتحول هـذا إلى مطلب للمسلمين هناك ، افراداً وهيئات ومؤسسات لإعادته الى اقرب صورة لأصله • وقد لا يعدمون من يعاونهم من الاسبان أو غيرهم • الم تقم لانقاذ بعض الآثار الوثنية دعوة عالمية ؟ فلماذا لا نعمل على إنقاذ بعض مآثرنا العمرانية وهو يهم إسبانيا من الناحية المعمارية والتاريخية والانسانية ويكون عاملاً يدعم علاقتها بالدول الاسلامية كما يزيد صالح السياحة ومصالحها عندهم •

وهكذا بعد أداء التحية لهذا المسجد الودود الولود التي يحن لأمثاله مـن جموع الابناء ، لم ينله منها إلا اللمام لافراد ، منذ انقطع عنه ذلك النداء وتوقفت الصلاة لقرون وهو قائم ينتظر أن تعود •

ان هذا المحراب ـ الذي صلينا عنده ووقفنا امامه، من زيادة الحكم المستنصر ـ كان مدهشاً في فنه وزخرفته المجملة بالفسيفساء (الموزائيك) الملونة المشهورة بفنها الرفيع ودقتها واناقتها •

ثم ودّعنا مسجدنا القرطبيّ ، فقصر الخلافة نحو مدريد

هل كنت معنا في وقفاتنا في أبهاء مسجدنا القرطبي الكريم وتحت قبابه وأقواسه ونحن نجول في ارجائه خلال زيارتنا له وتفحصنا لأحواله ؟ فاستذكر ما تستطيع واستجمع الصورة لتأخذ النفس بمعانيه مثلما كان تمتع النظر بمبانيه • فاستعد للاستمرار في بقية الجولة لما تبقى منه تنطلع إليه ثم الانتقال إلى جاره اللصيق ورفيق الطريق خلال القرون الذاهبة كأنهم ينتظرون عزة آيبة ، فهيا بنا نتابع الصور ونستبقي العبر كما نستجلي الخبر •

تركنا موقفنا أمام المحراب، وجئنا الى الباب الذي دخلناه ، بموازاة الجهة الغربية من بعيد ، لنمر قرب مدخل الكنيسة الدخيلة الثقيلة نستغرب ونستنكر مبنى ومعنى • فاننا ندعوا الله بقوة للمسلمين ونسأله الحماية والرعاية ونتضرع إليه بعودة الى دينه الكريم ، عودة جميلة صحيحة وأصيلة •

سرنا وكأننا ندفع بعضنا ، فلا نطيل هنا لنغترف المزيد من التجول خلال اعمدة واروقة وقباب أخرى لها علينا حق النظرة والتحية ولو من بعيد • والتقت جماعتنا بأخرى غيرها من المجموعة لنتجه صوب الباب الرئيسي الذي دخلناه • فخرجنا منه لنعود الى الصحن المكشوف مرة أخرى • وفيه ايضا وأمام حائطه المصلى حلا لي أن اركع ركعات اخرى تحية للمسجد تكرر ، ولم اكن وحدي الذي فعل •

تناثرت المجموعة في صحن النارنج لترى وتتفحص وتعين وتصور ، وان لم تفعل ذلك بكثرة داخل الحرم ، فأخذ كل منا يتردد في جنبات الصحن ، يرى اشجاره فيتأملها ويرقب أطياره فيناجيها وينظر مياهه فيجاريها أو يداريها • فكم وقف حول ميضآتها المصلون يتنظفون بمائه الطهور ويتوضؤون ليقفوا أمام الله وقد طهرت جسومهم بعدما زكت نفوسهم •

ولقد كان هذا الصحن حلية المسجد الجامع وأمامه المئذنة الفارعة مشرئبة يعلو رأسها في الفضاء تردد الآفاق نداءها لتبلغ به الأرجاء فيندفع المصلون إليه من أنحاء قرطبة وخارجها ، تموج بهم دروبها اليه في كل وقت متتابعين يدخلونه ، يأنسون بصحنه فيقبلون على مصلاه في ذلك المسجد الموصوف • ففي حرمه تربوا وفي محاريبه تغذوا وبين اروقته تلقوا •

وها نحن قد نعمنا بزيارته ساعة أو تزيد ، ناجيناه وناديناه وامتلأت النفس بفحواه • ولعل في العين دمعة يمسكها التجلد الصبور وفي القلب حسرة تخفيها الألفة الواعية وفي الحس معنى عبرت عنه حركة أو بنان وفي الفم كلمة تصبرت لتسري على اللسان أو غدت بذرة تنبت شجرة طيبة تؤتي أكلها ، مثلها في قادم الأيام إن شاء الله تعالى •

خرجنا من صحن المسجد الكريم من حيث دخلنا وعدنا الى ما ابتدأنا حيث تقف الحافلة ـــ لا لنأخذها ـــ عند حائطه الغربي من شارع المحجة العظمى الاندلسي قرب صفحة النهر الغامر ، قبالة مبنى في مكان قصر الخلافة الذي لم يبعد منه إلا قليل ، ويستعمل اليوم لبعض الشؤون الرسمية ، وكان فيما مضى استعملته السلطات النصرانية محكمة أو ان شئت ان تقول مجزرة للمسلمين في تنفيذ وحشيات محاكم التفتيش المشهورة المنكورة التي انتهت بعيداً أو غير بعيد لاتمام ابادة المسلمين • وكان الأفضل لو دخلناه فلربما اطلعنا على ما فيه ووجدنا ما قد يدل عليه •

وبعد ان وصلنا بداية الركن الجنوبي للمسجد اتجهنا نحو اليمين ، في شارع يقود الى حدائق قصر الخلافة وما زالت تحمل حديقة متنوعة الاشجار وهي تنعم بالاخضرار الجميل ، فيها بعض تماثيل ونصب عصرية لشخصيات اسلامية كالخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٦٦هـ) والشاعر ابن زيدون (٤٦٣هـ) ، وهذه طريقة غير اسلامية لتكريم أعلامنا والاحتفاء بهم ، وهي طريقة قد يصح الوصف بأنها وثنية أو ذات صلة بها ، ولأعلام اندلسيين آخرين في قرطبة لذلك مثيل •

وكان هناك على جهة اليسار بعد اجتياز ساحة تدل على انها كانت حدائق كريمة ـــ كما ورد وصفها ـــ نصل بقية أو جناحاً من قصر الخلافة القرطبي وعلى

بابه عبارة مكتوبة بالاسبانية تقول انه قصر الملوك النصارى ! وهو تزوير للحقائق وتغيير للوقائع وافتيات على التاريخ ، مر علينا أمثالها وليس هو الأخير •

دخلناه وتجولنا في قاعاته ، وقد اصابه كثير من التشويه والاضافة مما أذهب بكثير من رونقه وقد مسخت بعضها •

وصعدنا الى سطح قصر الخلافة القرطبي العلوي وارتقينا برجه لنرى منه منظراً رائعاً من حدائق القصر على جانبه الجنوبي والشرقي يليه الوادي الكبير وقنطرته المذكورة ، وبالقرب منها ناعورة تاريخية كبيرة ، ابقيت لتدل عليها ، ومنظر النهر الممتلىء بالماء الأحمر يسرع باتجاهه ويتلاطم بامواجه ويتضارب بتياره • وهو غير ما رأيناه في الذهاب قبل ايام خاوياً ، وهو اليوم يرشق صفحتي النهر بمائه ويبعث في النفس الفرحة والنشوة والروعة والهيبة والقوة بجانب الاحساس بالنعمة والانتعاش بالبركة بركات الله ونعمه التي لا تحصى على خلقه إذ أرسلت السماء ماء الحياة ساقه الله تعالى إلى الناس رغم بعدهم عنه وانشغالهم بغيره ، فهو بالناس رحيم جل جلاله • ومن خلفه في الجهة الجنوبية لقرطبة على شاطئه الآخر قرطبة الجديدة كما يسمونها اليوم • وكانت تسمى في الأيام الأندلسية الذاهبة ربض شقندة المشهور باشياء كثيرة ، منها : منياته أو مناه • وهي جمع منية بمعنى القصر أو الدار الواسعة اتسعت فاحتوت بستاناً جميلة بحدائقها واثمارها ، وهي ما قد تسمى اليوم فلة (فيلا) • كل ذلك كان يبدو من اعلى برج قصر الخلافة منظراً خلاباً وجذاباً ومنعشاً •

وبعد الاكتفاء من المتعة حين سرحت النفس مع البصر وقدرة الله تعالى أمامها تتجلى في كل شيء مثل هذا واكثر • واطبقنا على صور لها للاحتفاظ بها ، ثم نزلنا حتى باب القصر الذي تجاوره من الداخل حدائق واسعة جميلة مبهجة على الجهة الغربية • فزارها البعض على عجل وخرجنا نغتنم فرصة لعمل المصورات ، حلت انغامها غير الرتيبة • عدنا في نفس الطريق مسرعين متعجلين حيث اشتد المطر فلم يسمح بالاطالة ، فصرنا وقد انتهت زيارتنا لتلك المآثر ذات العمارة ومكمن الجدارة •

أما وقد انتصف النهار أو زاد ، وكان مجهداً وغنياً بما نحب وقد قضينا مأرباً وحصلنا فيه رغبة جادت وقتاً ملياً بالمزيد من الزاد المهم فقد آن حق البدن من الراحة والغداء « فأعط كل ذي حق حقه » كما في حديث الرسول ﷺ .

توجهنا الى مطعم جميل قرب المسجد أو جواره وباتجاه شماله . واكتفينا من كل ذلك فحمدنا الله تعالى وقمنا الى صلاة الظهر والعصر ، جمعا وقصرا ، في قاعاته متجهين نحو المسجد الرحيب وهو عنا غير محجوب نراه مع بعض معالمه ، فاسترحنا بها واتشينا لها مفتخرين ، وسلمنا خاتمين . فاستكملنا عدة السفر من جديد في العودة الى مدريد .

اتجهنا صوب الحافلة لنمر بجوار المسجد العتيد ونحن لا نفارقه رغبة في أن نطيل المقام معه . فصعدناها وامتلأت مقاعدها بنا ، وتحرك الشعور وأحس الجميع بفيض المحبة تشده إلى المسجد الصبور الغيور غامرة عامرة عرفناه بالمحبة وانطبعنا بالألفة سريعاً رغم الوقت القصير والجمع يسرح نظره نحوه حناناً ويطيل الاعتبار والاستذكار ويستعذب خبره ويستمرىء عبره ماضيها وحاضرها ويرنو الى المستقبل الأبلج منها بعون الله وقدرته .

وعندما اكتمل عددنا وتم تهيؤنا واستعدادنا،انطلقت الحافلة مسرعةإلىمدريد، مهملة زيارة أي من معالم قرطبة الحديثة ، زهداً فيها رغم توفر الوقت لدينا . معتبرين زيارتنا انتهت ، فعجلنا المسير نحو مدريد . ولعل الآخرين هكذا يفعلون إذا ما قضوا زيارتهم لهذه المآثر العمرانية الأندلسية واشبعوا نهمهم من الاطلاع على بقايا المباني الاسلامية هناك . وكأنه لم يبق في قرطبة بعد ذلك ما يستحق الزيارة غير هذه المعالم الخالدة ، فلا نريد ان ينتقص شيء من ذلك مما تركت في النفس متعة وإعجاباً وصوراً فنية وآثاراً جمالية والمعاني الفياضة التي حصل عليها وانسجم معها وامتزجت فيها ، حين نزيد فوقها ثقلاً تتوفر فيه النفرة والشذوذ والتشويش . فلتبقَ الحصيلة بغناها وروائها وبهائها في تذكرها وتذكارها وتعبيرها كحي يتمتع بحياة قويمة نحفظها ونرعاها ونتزين بها .

تعجلت الحافلة نحو الشمال في جو جميل مليء بالخضرة في الوديان والجمال يجتاز جبالاً مرتفعة هي سيرا مورينا (جبل الشارات) . وتمر على الطريق ببساتين البرتقال والزيتون ومواقع كثيرة العمارة يوصل الى مدريد تذرعه الحافلة في اربعمائة من الكيلو مترات بعد يوم طويل ممتلىء وغني حقا باحداثه وبما جرى فيه واكتسب منه ، يوم كغيره من الأيام هناك رغم قصرها لا تنسى ويالها من أيام تبقى مشاهداتها حية في الشعور وفي النفس ماثلة على مدى الأعوام .

ولعل العمران أيام الأندلس كان أكثر اتساعاً يومها وأشمل مواقعاً وأشـد اتصالاً ، ومن كل مظهر في المزارع والغروس بفنونها ، والانتفاع اوسع بمياه الانهار والامطار في الوديان والجبال . وشعب الانهار ممتدة عروقاً تزين الأرض وتمدها بالماء والإرواء ، فتنبت باسقاً مثمراً ورائقاً مزهراً وبساطاً أخضراً ، لاتكاد تجد خلاءً أو خواءً في الناس والحياة والأرض والمدن والثمار والانتاج . كانت مناطق وأحياء متصلة ، ليس في زراعتها وبساتينها وخضرتها وحدها بل بمبانيها ، قراها ومدنها وحواضرها . لا يكاد يمر المسافر والعابر إلا على العمران من كافة الالوان وفي أي ميدان ، ولا يكاد يفارق الحس البشري والأنس العمراني وفيض الثمـار وخير الغلات وجيد الاقوات . توفرت اخبار هـذا الحال لدى العديد مـن الكتاب الأندلسيين حين وصفوا الأندلس متنعمين بذلك الخير في النظر والنفس حساً ومعنى وبهجة أمثال ابن سعيد الأندلسي (٦٨٥ هـ) ، وفحوى ما يقول في الثناء على عموم خصوبة تربتها ودوام خضرتها وكثرة عمرانها واتصاله ان المسافر لا يكاد ينقطع أنسه أو تنتهي صحبته للعمارة فلا ترى ــ بعد المدن ــ خلواً من قرى ومياه ومزارع بجانب ما اختصت بها من الجمال والتأنق والتذوق الذي لا تفتقده قراها بل حازت منه الكثير في كافة أوضاعها والوانها التي تغلب عليها الأبيض منها ، فلا تنبو العيون بل تسكن وتستريح ، ولا تستوحش النفس بل تهفو وتستهيم سارحة في أرجائها مسبحة للخالق جل وعلا خاضعة لأمره طائعة لشرعه حامدة وساجدة ، تعرف حق الله عليها في كل موطن عابدة له كل أوان وحال ولون في كون الله العريض محرابه الكبير ، بعد ما تخرج من المحراب الصغير ، تتسع فيه آفاق النفس ويمتد البصر

وتتعمق البصيرة ويجول الفكر ويصول وكأنهـا ترى الكون الكبير . ففي كلا الحالين تحيا وترى الكون كبيراً ، خضعت جباهها للخالق وسبحت بحمده واستوحت مضامين معاني خلائقه ومعتبرة مكونات بدائعه التي تراها وتحاول استيعابها بأي مقدار . فاستراحت بالتوجه الى الله تعالى بارئها وارتضت طاعته وأنست برضاه صادرة بشرعه على الدوام .

فلقد كانت الأندلس من هذه النواحي الانتعاشية وبموجب الوسائل المتوفرة اكثر عمراناً فيما مضى عنه اليوم ، والعديد من مدنها أكثر سكاناً فهل لو نطقت هذه الأمور سترثي سابقها ، أو قرأنا لسان حالها لفهمنا ما بها ، ولو عرفت هذه الأجيال وأدركت لما عدمت وسيلة تندب حظهـا وشاركت مشاعرهـا شاعرنا شاعر الرثاء الأندلسي وأبو هذا الفن أبو البقاء الرندي (٦٨٨ هـ) أو إن شئت أن تستسميه أبو الرثاء الأندلسي في مرثياته الشهيرة .

وسارت بنا الحافلة ــ بعد قرطبة ــ ذلك الطريق الطويل الجميل بخضرائه واحيائه وتعرجاته . وقرابة منتصف الليل دخلنا مدريد حيث توقفت الحافلة الى جوار فندق جديد غير الذي كنا قد غادرناه أول هذه الأيام الأندلسية دخلناه وبعد راحة وقضاء مستلزمات واداء واجبات اتجهنا الى الراحة في النوم لنستيقظ على يوم مطير لا ندري ما الله فاعل فيــه ، نرجوه خيراً ونسأله رحمــة وندعوه براً « انه هو البر الرحيم » .

زيارة الأسكوريال مأوى المخطوطات الأندلسية

رأيتَ كيف وصلنا مدريد في ليل شات ، بعد ان تركنا قرطبة ومسجدها الجامع الرائع • وقد قضينا بين جنباته ساعات وكأنها أيام ، لما استغرقنا بالتمتع بعجائبه الباقية مثلما استذكرنا عجائب أهله الخالية وتأملنا الأجيال التالية ، ترد بعون الله تعالى مورد الصفاء لتنقذه وتنجيه ، بعدما تكون قد طهرت نفوسها كما يطهر الوضوء البدن ، وتستعد لحمل الراية تسيح في أرض الله مجاهدة خَلَفاً لجيل القرآن العظيم وتقدم مُثُلا من جديد منقذة الانسانية في كل أرجاء الأرض ، وقد يكون من بينها ممن حوله من الاحفاد الغافلة حين تعي وتدرك فتقوم ، فتشرق الأرض عندها بنور الله رب العالمين ، وهل بعده من نور « فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » ؟!

أطل علينا في مدريد صباح يوم الاثنين ٢٠ ربيع النبوي ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨/٢/٢٧ م) جميلا ظليلاً ، ظللته الغيوم وجملته الامطار تهطل بقوة ننظرها متلذذين من داخل غرف وقاعات الفندق في القسم الشمالي من مدريد بمواجهة المحطة ، معقل قطارات الشمال • فكانت متعتنا بهطول الامطار لا تقل عن متعة زارع ينتظرها وهو يرفع اكفه بالضراعة والدعاء وتراه الآن يهلل ويكبر حامداً لله ، ونحن نستمتع بمنظرها وأثرها ، لم ينقص من ذلك أو يعكره تأخر برنامج اليوم بسببها ، اذ تهيأنا لزيارة قصر الاسكوريال شمال مدريد ، وحيث اخبرنا بذلك ضحى • فتفرق الجمع شذر مذر ، مثلما جرى لمحتويات الجيوب التي لم يصلها بعد النضوب وان استمر يهددها •

استقر البعض منا طيلة اليوم أو أكثره في أركان الفندق ، وكثرة من الاخوات وجدن في هذا الحال فرصة لمواكبة استدرار إغراءات المحلات التجارية لما في

الجيوب ، ولهن من العذر غير قليل • وهكذا انقضى يومنا ذاك على غير ما رسمنا أو تأملنا « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً » •

وبتنا ليلتنا نرتقب صباحها الوليد الجديد ، حيث اجتمعنا كالعادة مبكرين ، فكان ذلك لمن فعله منا بركة كما في معنى قول رسول الله ﷺ « ان الله بارك لامتي في بكورها » ، تتعجل الاستعداد متفائلين بجو جميل بلون جديد في يوم مشرق صبوح لا مطر فيه ولا رياح ، برده غير قارس نحتمله منتعشين •

وقبل ضحى ذلك اليوم ــ الثلاثاء ٢١ ربيع النبوي ــ جاورتنا حافلتنا تنتظرنا وتعجل صعودنا اليها وتم ذلك • وسرنا ــ صحبة دليلتنا المدريدية ــ نحو الاسكوريال • وهي ضاحية تقع شمال غرب مدريد على مرمى خمسين كيلو متراً • في واد ارتفع عن البحر نحو الف متر ، ذي منظر أخاذ ، واحدة من نعم الله تعالى الكثيرة على الانسان حيثما وكيفما كان ، فعصى بعضهم واطاعه آخرون • استلقت هذه الضاحية في ذلك الوادي مستظلة بجبال وادي الرملة الأندلسية الشهيرة المرتفعة • والوادي يؤنسك منظره تغمره الخضرة ذات الاشجار الجميلة ، تملأ كل ما هنالك •

انطلقنا من مدريد ، فاجتزنا اليها طريقاً متموجاً متعرجاً ، ترتفع حافلتنا ولا تكاد تهبط غير قليل ، تمر خلال المدينة الجامعية وبعدها مدينات جديدة لفئات ، ناظرين دوراً كثيرة متناثرة خلال الطريق ، مصيفاً لأهل مدريد الاصلاء أو النزلاء • ويجد الانسان اثناءه ميلاً للاستمتاع بما حوله دون كلام ، غير جمل متناثرة تعرفه سريعاً بهذا الذي يراه أو ذاك ، حتى وصلناها • وما أن فتحنا باب الحافلة للنزول حتى هجم علينا البرد أو هجمنا عليه واشتد الأمر • البرد هنا حقاً قاسٍ وقارس ، منع ــ لقوته وبأسه ــ نزول العديد منا لزيارة قصر الأسكوريال ، فكمنَّ في مواقعهن من الحافلة ، كما حال ذلك بين من نزل وزيارة المدينة ذاتها ، وهي ــ رغم صغرها ــ جميلة ، احدى ملتقيات السائحين يتعمدون تناول وجبة في حدائقها التي تتحول احياناً الى مطاعم ، لكن في غير هذا البرد الشديد الذي واكب الصفر أو هبط دونه •

جرى النازلون نحو القصر يحتمون به من البرد ورياحه الموجهـة نحونا ، فاخترقنا الساحة الواسعة امامه حيث تجول الرياح فيها وتصول • وبجانب جمال المكان والمناظر الجميلة والجبال فان أهم ما هنالك قصر الأسكوريال الذي يقع ــ والضاحية باسمه ــ في ذلك الوادي الاخضـر الجميل • واتخذت الاجراءات لدخول القصر فيحجب عنا سهام البرد المديدة الممدودة الينا •

ولهذا القصر قصة وأيـة قصة مثيرة وغير قصيرة ، تحمل في طياتها الأخبـار وتستأهل بها أشد الاعتبار • اخبارها تخصنا ، وان جاوزنا مدريد الى الشمال أو تابعنا الاحداث بعد سقوط غرناطة بقرن أو قرون • فمكانها وزمانها يتصل بنـا شديداً ، حيث كانت جزءاً أندلسياً ــ وليس دوماً ــ على خيط الحدود الأندلسية التي امتدت أحياناً إلى نهاية الجزيرة الايبيرية أو الأندلسية وأحياناً انحسرت لمـا دون ذلك •

وتاريخ إنشاء الاسكوريال ــ وأوله القصر ــ كان بعد سقوط مملكة غرناطة ــ آخر حصن للمسلمين في الأندلس ــ وزوال سلطانهم السياسي فيها سنة ٨٩٧ هـ وترحيل أهلها أو كبتهم وتقتيلهم • وقصة القصر في ظاهرها وباطنها الثاوي في أقبيته تلفها الأقاصيص ذات المغزى والاحداث التي تعبر الخط الصليبي الذي ذكرناه رغم تأخره • فان الحروب الصليبية ما انتهت بعـد ولا يظن ان لهـا حتى الآن قراراً أو استقراراً •

ابتدأ بناء قصر الاسكوريال ــ الذي استغرق عشرات السنين ــ سنة ١٥٥٧ م ملك اسبانيا فيليب الثاني ، وهو ابن كارلوس الخامس (شار لكان) الذي رأيناه اقام الحرب الصليبية على مُسْلِمة الأندلس وكل ما يتعلق بهم • وأقام فيليب الثاني هذا البناء الضخم الذي يحتوي القصر والكنيسة ودير يضم مكتبة ومدرسة • واتخذه منتجعاً ، قريباً من مدريد التي نقل إليها عاصمته سنة ١٥٦١ م من طليطلة • ويكاد يكون هذا المبنى اليوم موئل سياحة يقصده القادمون ، وبه كانت شهرة المكان • ويمكن اعتباره الآن متحفاً للفن والآثار بجانب المكتبة الغنية بالمخطوطات الأندلسية وغيرها •

وقصر الأسكوريال واضح الضخامة عرض حيطان وسمك عمدان وارتفاع بنيان • وهذه هي أهم مميزاته المعمارية التي تقوم على كبر الحجم أو الضخامة والفرق واضح في فن العمارة بين ما وصف من المباني الاسلامية الاندلسية التي تتسم بالدقة والقوة والفنية والجمال مع البساطة وصغر الحجم تثير الاعجاب بسهولة حتى اليوم لدى السائحين كافة ، حتى أهل الغرب ، وهو أمر تعجز عنه المباني من مثل الأسكوريال الذي عمل أيضاً ليضارع المباني الاسلامية هنالك، ورغم كونها مثالاً سابقاً يجاورهم لقرون وتوفر الخبرة المتاحة المباحة التي مضت عليها الاجيال وأقامت تحت انظارهم الأمثال وشتان بينهما شتان •

دخلنا هذا المبنى — وكأنه قلعة — نتجول في قاعات القصر وغرفه التي تضم التحف الفنية الكثيرة لاسيما رسوماً لعدد من الرسامين الاسبان تمثل قضايا متعددة كان منها واحدة كبيرة جداً في حائط قاعة طويلة تمثل معركة جرت جنوبي الاندلس بين المسلمين وجيوش اسبانيا النصرانية جعلوا النصر الفخم فيها لهم وصوروا المسلمين في وضع مبعثر لانظام لهم وقد فلتت من ريشة الرسام مايريك شجاعة المسلمين في الميدان في مطاردتهم أمام كثرتهم لايختفي عنك ذلك رغم التحيز والتحريف والتزييف •

دلفنا — من ذلك — إلى المكتبة التي تضم المخطوطات العربية وغيرها • وتجولنا في قاعة العرض وهي واسعة طويلة عرضت فيها نماذج من مخطوطات منها باللغة العربية الاندلسية وغيرها ، كان منها مصحف كريم مزين بالتذهيب • ثم ذهبنا إلى قاعة المطالعة واطلعنا على أحوالها ونظامها وبعض ما فيها ورأينا بعض المخطوطات •

وللمخطوطات في هذه المكتبة قصة أخرى مؤسية مؤذية ومهمة ، ذلك أنه بعد سقوط الاندلس سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) وتوقيع معاهدة تسليم غرناطة — بين أبو عبد الله الصغير محمد (الحادي عشر) وبين الملكين الكاثوليكيين فردناند وايزابيلا وجيوشهما — التي تقع في نحو سبعين شرطاً تؤكد المحافظة على المسلمين وما يخصهم ، كان أول ما نفذوه فيها دون غيرها هو خرقهم لشروطها ونقضهم لعهودهم فيها •

وموضوع نقض العهود وسلوك سبيل الخديعة والتستر عليها والتظاهر بغيرها أسلوب جار ومعهود في تعامل اسبانية النصرانية مع أهل الاندلس رغم حسن المعاملة

تجاههم ابتداءً من المسلمين منذ أيام الفتح الأولى للأندلس حتى نهاية عمر الدولة الاسلامية فيها البالغ ثمانية قرون وفي كل الظروف ، وقد تم الالماح لذلك . وهو شائع في تعامل غير المسلمين في كل زمان ومكان وفي الوقت الحاضر مع الكتل ذات المبادىء من كل لون تحمل شعاراتها وتدعو لمحتوياتها وتباهي بفلسفتها . ويشير فحوى هذا الاتجاه اذا خوى القلب من الهدى ضل وتاه وطغى وبغى . وكل قوة يملكها بعد ذلك من العلم بفنونه والمال بمشاريعه والسلطة بامتدادها تتحول إلى جبروت ، لكن يتميز بالبراعة والتبرير حين لا يمكن سترها وما خفي أعظم . والمسلم وحده ــ فرداً وجماعة ودعوة ومجتمعاً ودولة ــ يخشى الله ويعمل لرضاه ويهتدي بهداه وهو ملتزم بهذا الشرع السامي الإلهي ، ينتمي إليه التزاماً ويرتقي به مستوى عالياً وأُفقاً كريماً . وهذا أمر طبيعي في كلا الحالين : المسلمون يستمدون سلوكهم من عقيدة حية في النفس ، يستلهمون سرها وروحها ويترسمون أمرها ويحرصون على تطبيقها في كل مجال وهي إلهية ترتفع بالبشر بطاعتهم لله تعالى فوق المستوى الأرضي والأفق الوضعي ولولاها ما كانوا . فهم يتعاملون بها في كل حال ، كما يتعامل غيرهم بسلوكيته الملتوية في أحواله كلها حتى وهو قوي لا يحتاج لذلك الالتواء والهبوط والتدني ، والتاريخ يقدم الأمثلة لكل لون . ومن جميل الأمثلة على سلوك سبيل الالتواء والغدر ماجرى في معركة الزلاّقة (٤٧٩ هـ) التي جرت وقائعها في سهل شمال شرق مدينة بَطَلْيَوس على حدود البرتغال الحالية على بعد نحو اربعمائة كيلومتراً جنوب غرب مدريد، وجرت المعركة بين المسلمين الأندلسيين وبين الجيوش الصليبية في اسبانيا الشمالية وبقية أوربا بقيادة الفونسو السادس ملك قَشْتاله الاسبانية الذي غره تفوق جيشه في العَدد والعُدد والتنظيم والتدريب والعناية . التفاوت الكمي بين الجيش الاسلامي وغيره في مثل هذه المواقف مألوف معروف ، وكذلك في غيره . لكن نصر الله تعالى مع المؤمنين الصابرين المجاهدين وإن كانوا قلة وهم في الاعم الاغلب كذلك والحمد لله رب العالمين . وحين كان كل من الجيشين في معسكره أراد الفونسو خديعة المسلمين . فوجه كتاباً يوم الخميس

الى قائد الكتائب الاسلامية يوسف بن تاشفين أمير الدولة المرابطية المغربية ـ الذي جاء إلى الاندلس نجدة لإخوانه المسلمين فيه ـ يخبره أن المعركة تكون يوم الاثنين بعده ، موعداً يحدده متفقاً عليه ، خديعة منه ليباغت المسلمين . لكن الجيش الاسلامي أدرك ذلك لما يعرفون من أساليبهم ، وتوقعوا مباغتته الجيش الاسلامي صباح الجمعة بعده ، فأخذوا للأمر أهبته . وكان مع الجيش الاسلامي العديد من العلماء الاعلام المجاهدين ، وتلك سنة موروثة معروفة في حرص العلماء على المشاركة في الجهاد ، بل هم أوائل الشهداء وكان من هؤلاء في هذه المعركة ابن رُمَيلة القرطبي . وبينما كان ابن رميلة نائماً ليلة الجمعة استيقظ من نومه فرحاً لرؤيا رآها، فذهب إلى القيادة يقص رؤياه عليهم ، رأى رسول الله ﷺ يقول له : إن المعركة ستكون صبيحة غد (الجمعة) وبشره بالنصر للمسلمين والشهادة له . فزاد عندها استعداد المسلمين ، وتأهب ابن رميلة للمعركة ، فاغتسل ودعا ودهن وتطيب ولبس الابيض وصلى ، ليدخل المعركة يزف إليها ، وكان فرحاً مستبشراً . وفعلاً ففي أول ساعة من صباح يوم الجمعة هاجم الفونسو المعسكر الاسلامي ، وبدأت المعركة التي استمرت طوال اليوم ، وهب الله فيها النصر للمسلمين ، وكان ابن رميلة في المقدمة يقاتل الاعداء مقبلاً غير مدبر فاستشهد تزفه الملائكة الى جنة عرضها السموات والأرض . وهكذا باء الفونسو بغدره « ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله » .

وشمل نقضهم لمعاهدة تسليم غرناطة كل ناحية ، بل من الغريب أنهم اعتبروا ذلك من مستلزمات تدينهم ، والنصرانية وكل أديان الله تعالى من ذلك براء . وهذا عندهم عرف وهو عند أهل الاديان الاخرى ـ بعدما بدلوا ـ قائم دائم مهما كان أحدهم ولا يفلت من ذلك إلا من عصم الله . وإن الذين يحملون كبر هذا الاثم أولئك الذين كان عليهم حمل لواء الطيب والاقتراب من الاسلام والايمان به لما عندهم من العلم بدل الوقوف سداً حاجباً بغير حق . وإن أكثر المستشرقين المعاصرين يرون منهجهم العلمي في تشويه الاسلام وشن الهجوم عليه تشويهاً وتزويراً وبهتاناً عظيماً ، عن علم واصرار هدفا وغاية مرسومة لهم . وان بعضهم حين تخلى عن ذلك انتهى الامر به الى اعتناق الاسلام والدعوة اليه .

وبجانب شن الحرب ضد المسلمين في كل ناحية صدر أمر ــ بعد سقوط غرناطة بأقل من عشر سنوات ــ يقضي بجمع ما أمكن من المخطوطات الاسلامية واحراقها في ميدان باب الرملة الكبير في غرناطة في حفل سموه عمل من أعمال الايمان . وقدر ما أحرق منها عدة مئات من الآلاف . وكان ذلك عملاً وحشياً ارتكبته السلطات الاسبانية ــ بكل أنواعها ــ ضد الانسانية كافة لافي وقتهم بل ولما تلاها . يا لله كيف احرقت ــ في يوم واحد أو يزيد ــ ما تعبت فيه أجيال وخيار الأجيال خلال القرون العاليات السابقات بأيد أولئك البررة والعيون الساهرة اعتصروها فكراً وبذلوها جهداً ورعوها غروساً أعطت ثمار المجاهدين في كل الميادين وعلم العاملين على مر السنين تفوح بخبرة المجدين الباذلين الخير لايسألون جزاءً .

واستمر الاضطهاد من كل لون يطارد المسلمين ، ولم يكن القتل أكبرها إثماً ولا أقساها بل عمليات التنصير ونصب محاكم أو مقاصل التفتيش لمن يثبت أنه ما يزال مسلماً أو له أية صلة بذلك . وكان من معتاد الاجراءات منع اللغة العربية التي يؤخذ المتكلم بها والمتعلم لها إلى الموت إذا استعملت مع غيرها دليلاً على صلته بالاسلام . وفرضت اللغة القشتالية (الاسبانية القديمة) مما دعا المسلمين إلى استعمالها وكتابتها ولكن بحروف عربية (اعتزازاً بها) يستعملونها سراً . وسميت هذه اللغة (القشتالية المكتوبة بحروف عربية) «الاعجمية» وهناك بعض المخطوطات مكتوبة بهذه اللغة في مكتبة مدريد الوطنية ، التي ــ للأسف ــ لم نزرها .

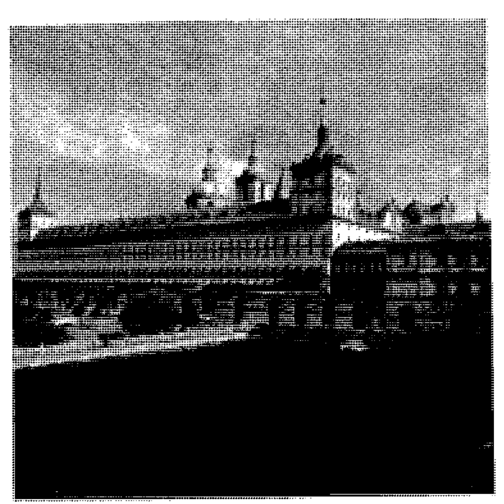
ومن طريف ما ذكر أنه حدث قبل سنوات قليلة ، في مدينة تابعة لبَلَنْسية ، شرقي اسبانيا على البحر المتوسط ــ وهي أندلسية ــ حين اصطدمت سيارة بمبنى قديم فيها فتهدم ، ولكن المفاجأة كانت مدهشة ، وجدوا بين الانقاض مجموعة من المخطوطات الاندلسية في حالة جيدة كانت مبنية داخل جدران البناء المتهدم . لكن تعليلي للأمر أنه حين مطاردة المسلمين وكتبهم ــ من قبل محاكم التفتيش الاسبانية ــ ومعاقبة من يجدون عنده منها شيئاً ، أودع أهل تلك الدار هذه المخطوطات في داخل حيطانه حماية لأنفسهم واعتزازاً بالكتب من أن تكون مادة للحرق ، وبقيت حتى جاءت هذه السيارة لتصطدم بالمبنى وتخرج هذا الكنز الذي حفظته حيطانه .

وتعتبر مكتبة الأسكوريال مقصداً لكثير من الباحثين وتحتوى على ثروة من الكتب المطبوعة والمخطوطة • وتبلغ مخطوطاتها نحو عشرة آلاف بلغات متعددة وبالعربية منها حوالي ألفين • وهو أكبر عدد منها تضمه مكتبة في اسبانيا أمثال المكتبة الوطنية ومكتبة الاكاديمية التاريخية في مدريد والمكتبات الاخرى في غرناطة وغيرها •

وليس هذا كل ماتجمع في أقبية الاسكوريال من المخطوطات العربية مدخراً حتى اليوم ، فبعد بناء الاسكوريال جمعت بعض المخطوطات من القواعد الاندلسية واستمر هذا الجمع حتى أضيفت إليه سنة ١٦١٢ م ثلاثة آلاف مخطوطة حين تم اغتصاب القراصنة الاسبان ــ على السواحل المغربية ــ لسفينة كانت تنقل مكتبة سلطان المغرب مولاي زيدان • وبذلك بلغ عدد المخطوطات العربية وحدها في قصر الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوطة ، حجر عليها ، ولكن سنة ١٦٧١ م شب حريق ــ لعله مقصود ــ أكل أكثر هذه المخطوطات ولم يفلت منها غير ألفين هي المتبقية اليوم • وهذا الذي اتلفته النيران قليل جداً بجانب ما أتلفته يدَ الإنسان حين يحقد ويضل • وشتان بين يد كتبت واخرى أحرقت وواحدة عمرت وغيرها هدمت وهذه دعت وهدّت وتلك ضلت وأضلت •

لقد بقي الحَجْر سارياً على هذه المخطوطات خوف امتداد نورها إلى الابصار فتنيرها • وكان أول فهرس وضع لها أواخر القرن الثامن عشر ، ثم بدأ من القرن التاسع عشر شيئاً فشيئاً السماح لزيارة هؤلاء المسجونين • واليوم يرتاد الباحثون المهتمون بهذه المخطوطات مكتبة الاسكوريال للانتفاع بها ودراستها والتعريف بها ونشرها بعد تحقيقها •

وبعد أن تجولنا في المكتبة وتفحصنا مارأينا وتعرفنا على تلك الكنوز التقطنا بعض الصور لها تاركين كنوزنا وذخائرنا هناك ، وهي رغم قيمتها ليست إلا غرفة من بحر دُفن تنادي للانقاذ وتطالب باطلاق سراح ، وهو أمر يقوم به بعض الباحثين بجهودهم الفردية المحصورة • والعمل الجاد أن يتولى ذلك هيئات ومؤسسات تنفق عليها الدول الاسلامية منفردة أو مجتمعة لانقاذ هذه الكنوز ــ واسمى ــ والانتفاع بها •

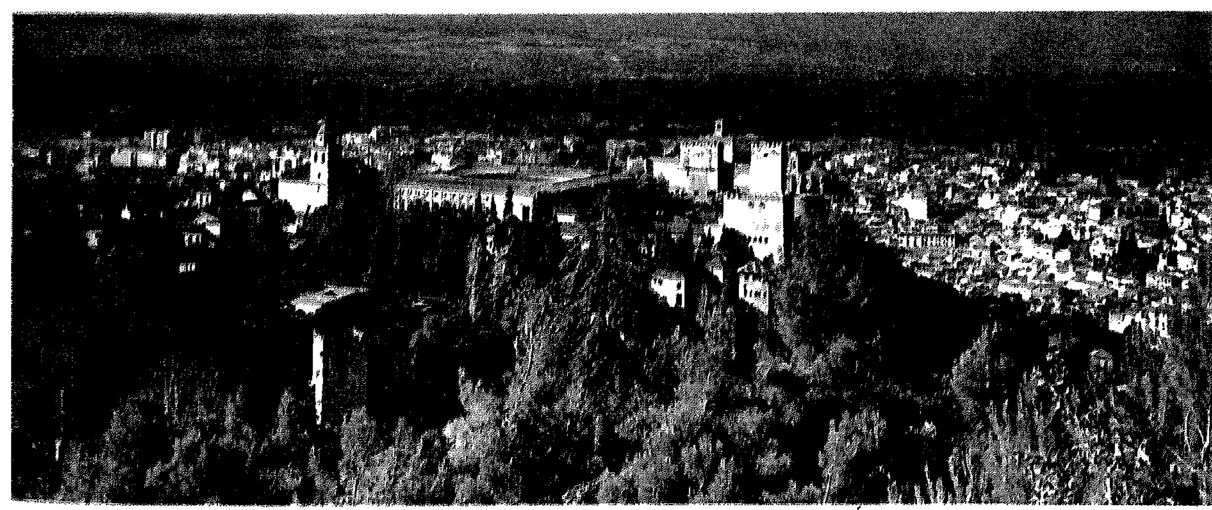


واجهة قصر الاسكوريال شمال مدريد

أول جنة العريف «المدخل والبركة» فناء الساقية



صحن قرطبة الجامع وأشجاره والمئذنة التي تعلوها الصليب



منظر لمدينة غرناطة وتبدو الحمراء بحدائقها الغنّاء

وبعد هذه الجولة ــ في أجنحة قصر الاسكوريال ــ تَ الساعات العديدة لجأ البعض منا للترويح في مقصف القصر ، خرجنا بعده مسرعين نحو الحافلة مخترقين الساحة الواسعة أمام القصر جرياً هروباً من البرد الشديد لنبين الدفء في مقاعدنا داخلها ، فلم ننتظر لغيرها إلا ريثما يكتمل العدد ، وهكذا كانت هذه الزيارة التي أضيفت على البرنامج وبه سدت إحدى ثغراته .

واتجهنا عائدين نحو مدريد فوصلناها وما يزال متسع ــ وإن تأخر ــ لتناول الغداء في الفندق ، فحمدنا الله تعالى على نعمه ، وبعد تناول قسط الطعـام هناك وأخذنا في استرواح راحة الأجسام . وعلى ذلك صرفنا بقية يومنا في راحة وفسحة واقتناء في تنافس واغراء .

ثم جُلْنا جَولاتٍ مُتَفَرِّقات في مَدْريد وعُدْنا مودِّعين

لعل الملل لم يبلغ بك مداه ــ أيها القارىء الكريم ــ في الدعوة إلى استذكار ما مرّ ، لتترابط الصورة وتتكامل الأحداث ، في الرحلة الجامعية إلى الأندلس لوفد طالبات جامعة الامارات ، ليحلو لك باقيها حين تأتي هذه المرة على كل ما فيهـا ، وبالله تعالى التوفيق •

ففي صباح الاربعـاء ٢٢ ربيع النبـوي ١٣٩٨هـ (١٩٧٨/٣/١ م) تمت الاستعدادات واتخذت الاجراءات لزيارة سفارة دولة الامارات في مدريد • ولمـا وصلناها وجدنا موظفي السفارة في استقبالنا • ثم كانت جلسة تعارف مع السفير وزملائه الذين رحبوا بنا وأبدوا الاستعداد لما نحتاج ، فدارت الأحاديث متنوعة وسرّنا هذا الاهتمام • وعند الخروج ودعونا مكرمين ، بعد الاتفاق على تلبية دعوة غداء في اليوم التالي ، فودعناهم شاكرين •

كانت بقية ذلك اليوم ــ مثل أيام أُخر في مدريد ــ جولة حرة ، أو بها شبيهة ودأبت هذه الجولات استيلاءً على ما في الجيوب التي استمرت تدنو من نهايتها والخلاص من اثقالها •

ومنذ وصلنا اسبانيا حتى ودعناها بذل جهد في الحرص على الالتزام بالسمت الاسلامي الكريم ، حسب الاستطاعة ، ولمن يريده متسع على ألا ينسى الحذر كما يأخذ بالحيطة ويرتفع عن الاغراء • وحين يعزم ويتوكل على الله في ذلك يوفقه تعالى له وينال غير قليل من النجاح إن فاته كله ، وعلى قدر الصدق والجد والهمة • فان الزائر لمثل هذه البلدان كالجالس إلى نافخ الكير إن لم يصبه بناره أصابه بشراره ، عافانا الله من كل محرم وسوء ومكروه • وقد تكون تجربة نافعة تكسبه قوة وصلابة في ميدان دعوة لخير وأجر عند الله عليه لتعريف بدين الله بكلمة أو سلوك قويم •

واسبانيا ككثير من البلدان ، شرقت أو غربت ، تعد للسائحين والزائرين ـ مهما اختلفت أذواقهم وميولهم وطلباتهم ـ كل لون مما يشتهون ، إحساناً للضيافة وتقديماً لمتطلباتها واعتناءً أو إغراءً بمقدمها واستدراراً لمحتوياتها • وتعتبر ذلك اعتيادياً ابتداءً،ومن أجل المصلحة والمنفعة والعملة الصعبة فهو محبب مرغوب، وإن ذلك من جملة مصادر الثروة القومية • ولقد بدا هذا وأمثاله يسري إلى بلدان أخر ، مع تفاوت وحسب الالتزام والالتزامات • والمسلم وحده يزن الأمور بميزان القيم الفاضلة كما يريدها الاسلام دون النظر إلى أي اعتبار ، وكل شيء في الحياة يأخذ مجراه ويترسم أثره • وإن انسانية الانسان كما يريدها الاسلام فوق كل شيء وأهم من كل مدّخر واعتماد ، وهو الجلاب لخيري الدنيا والآخرة • وبه تكون الحياة ملتزمة ، فتكون حياتنا شرعية ، كل مافيها يدين بشرع الله وبه محكوم ، وهذا هو المجتمع الاسلامي • وغيره تحكمه مصالحه ومطامعه وتقوده أهواؤه ، فتثقله أعباؤه ، والمثل عنده خاضعة لهذا المنطق • لكن المسلم يجعل الشرع أولاً وأخيراً ، ليس قهراً بل طواعية وبذاتية ورغبة قلبية وتَوَجُّه نفسي • وهو أمر واضح في الاسلام ، نرتقب يوما نرى فيها مجتمعاتنا مثالاً ، أو نشهد مجتمعاً يكون ذلك فيه ماثلاً إن شاء الله تعالى • وليس هذا خيالاً بل أملاً ، وليس تحقيقه على الله بعزيز ، وسنته إحسان العرض منطقاً وسلوكاً • فهو دين الفطرة ، وكل انسان ومجتمع موضع وميدان لدعوة الله أكثر من غيرها ، فالاسلام وحده يلائم الفطرة الانسانية وترتاح إليه النفس وبه تصلح وتنسجم وتستقيم • ولا بد للمسلم أن يكون مثالاً ناطقاً في سلوكه مع كل أحد وحيثما وجد « اتق الله حيثما كنت » •

ولقد كانت لنا في مدريد بعض جولات شبه حرة بواسطة الحافلة ، نزور من مناطقها وأحيائها ومعالمها • وكم فاتتنا زيارة بعض آخر منها مثلما فاتت زيارة أماكن في اسبانيا، حيث لم يوضع البرنامج بدقة ومعرفةكافية ورغبةفي الانتفاع بهذه الرحلة لأقصى حد ممكن • ولقد وجهت دليلتنا التي رافقتنا إلى جنوبي الأندلس وغيره نقداً قوياً لهذا البرنامج • وحاولنا جاهدين إجراء التغييرات الموجبة وأفلحنا في

بعضها ، وفاتنا العديد من المواطن والمشاهد ، مثـل المكتبة الوطنيـة والجامعـة ومؤسساتها ، وبعضها المهتم بالدراسات الاسلامية • كما فاتتنا زيـارة جامعـات ومتاحف من مدن اسبانية اخرى •

وكنا ــ قبل ذهابنا إلى جنوبي الأندلس ــ قد زرنـا من قرب بعض معالم مدريد المهمة ، أمثال حدائق الريترو ، ومررنا ببعضها مثل باب القلعة ، وبعد زيارة الآثار الإسلامية عدنا لزيارة معالم مدريدية غيرها •

وخلال جولاتنا تلك في مدريد بالحافلة أمكن كذلك زيارة بعض الأماكن في العاصمة ، سواء وقفنا عندها خفيفاً كالمدينة الجامعية أو مررنا بها مسرعين أو متمهلين كملعب كرة القدم الشهير وملعب مصارعة الثيران الذي كان مقفلاً ومعطلاً لوقت خلال الأسابيع المقدسة ! رياضتان لهما الشهرة الأولى في اسبانيا وأقرب طريق إليها• وتمثل مصارعة الثيران صورة لقسوة الانسان على الحيوان ، فأيهما أولى بالوصف؟ كما تمثل الملاكمة وأمثالها صورة لقسوة الانسان على الانسان • إنها صفة لايبالي حاملها أين وكيف يضعها •

وغدت الرياضة عالماً خاصاً مقدساً أو غير مقدس ، فنما التعلق بها نمواً غير محمود ولا طبيعي ولا حقيقي ولا صحي ، يستفرغ الطاقة لغير ما خلقها الله تعالى له ، والاهتمام بها مركز وعام ، بحيث يكاد يستحوذ على كثير من وقت أهلها ــ بكثرتهم التي تزداد ــ وتمتلك وتحتوي اهتمامهم وتشغلهم وتصرفهم عن أمور كثيرة أهم من أروع ما فيها ، بأي لون ونظرة ، إلى درجة جاوزت حد المعقول وأقلقته •

ولعل اسبانيا لاتنفرد بهذه الواقعة بين دول العالم ، حيث تشاركها عدة بلدان، في طغيان الاهتمام بأمور على مطالبهم ومشاغلهم الجدية الضرورية ، رياضة كانت أو غيرها ، وإنه اتجاه • وذلك بتنمية هذه الأمور وتسليط الأضواء عليها بالوسائل الاعلامية والتربوية المختلفة لدوافع معينة وأوضاع مساعدة عليها • وكان الأولى أن يعطى الأمر الأكبر العناية المناسبة لمكانته ، فكيف إذا كانت هذه الأمور جانبية • أم هي المشاغلة والاضاعة والمدافعة لما هو أدعى لاهتمامه ، لا سيما والعالم اليوم في جوعة لا إلى مثلها بل إلى ما يحقق إنسانيته التي ضاعت أو ضيعت في هذه الأمور

وربما في غيرها أقل؟ مية منها بل فيما ينهك حاله ويذهب ماله ويبيد انسانيته أو يمسخ فطرته ، وهم يدركون أو لايدركون « * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * » وللأسف فإن هذه البلوى عمت وطمت . ومباريات كأس العالم لكرة القدم أظهرت الكثير من هذا ، فكم جرت من أحداث مأساوية لغلبة هذه وخسران تلك . وكم سهر الساهرون ساعات من الليالي طويلة إلى متأخرها أو بواكير فجرها لمشاهدتها . وبلداننا لم تستطع الوقوف خارج هذه الدائرة بكليتها ، فان التيار قوي جارف والمقاومة لهـا مستلزماتها وظروفها . على أنه لم يعط جزء من هذا الاهتمام الحماسي والتعلق المفضل للأمــور الاساسية في حياتنا والتي تعرفنا بالله وتقربنا منه وترفع من درجاتنا عنده ، فتنجو انسانية الانسان وتحقق . وهي أولى وأوجب ونحن إليها أحوج ، فهل ندرك العوامل كلها ونأخذ بالاسباب ؟ وهذه أيضاً كتلك صفة وحال ، ولا بد للعلاج من الشمول لاعادة البناء من جديد ، يتناول لبنة لبنة بكل ما تحتويه .

والاسلام علم أهله أن الوقت غال ونفيس ، فلا يهدر رخيصاً وبهذا القدر ، فهو الحياة . وورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ ذكر أن الله تعالى سائل كل انسان يوم القيامة « عن عمره فيم أفناه » . وإن الذي يضع الكمالي أو الترف لبنات في أسس بناء حياته ومقوماته ومنابع حضارته لابد أن يعيد النظر فيحساباته وبسرعة وقوة دون تردد ، ولا يعفيــه أو يعرقله إلا إذا كانت سكرتها قد ضربت أطنابهـا .

ومع ذلك فان القوم أحياناً ـ تبعاً لحساباتهم المادية وفيما يتعلق بالانتاج ـ يحسبون للوقت هنا حسابه . فمن حسنات ما رأينا في اسبانيا أن الارسال التلفزيوني ينتهي الساعة الحادية عشرة ليلاً . وهو أمر مستحسن ومن الجدير الاخذ بمثله ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بهـا ، كما في معنى قول رسول الله ﷺ .

وإن تغيير هذه الموازين ممكن ويحتاج إلى تغيير في البنية النفسية ، فتتغير اعتدالاً الوجهة الثقافية والاجتماعية ، منهـج منظم وعزم أكيد « إن الله لايغـير

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » • ولا تصلح الترميمات والترقيعات ، ولو صحت عزيمتها ووضحت جديتها ، فتكون أمراً جزئياً لا يغني البناء شيئاً ، إذ لا بد من بناء جديد في عالم الانسان على هدي القرآن •

ونحن ـ المسلمين ـ أولى الناس به ولكن حين نفهم ديننا بجد وصدق وعمق ونعتبره عصمة أمرنا وقائد موكبنا وهادي طريقنا ، وعلمنا حقيقة مكانتنا وواجبات وجودنا ورونق انسانيتنا ، يبني الحياة المثال والنهج المقتدى والطريق المقصود ويهتدي به بنو البشر ، لا أن نضيع في غمرة الزحام إمّعات شاردة ، نقف أو نسير بخطواته ، نفخر بتقليدها ونعتز بتمجيدها • وكيف لمن بيدهم القرآن الكريم ليكونوا هداة ودعاة ، فغدوا توابع للفوضى، بديلاً من الاستقلالية والخيرية الفاضلة والقيادة الرحمية بأحقية وجدارة وأصالة نادرة شامة بين الامم وراية عالية في الخافقين •

وهكذا كانت جولاتنا المتنوعة ، أطلعتنا على أمور مفيدة ، وإن فوتت عدم الدقة في البرنامج أموراً لاتقل أهمية على مارأينا من معالم مدريد •

وفي عصر هذا اليوم جاء مندوب الاذاعة الاسبانية (القسم العربي) ـ على ترتيب ـ وتم تسجيل عدة مقابلات مع الهيئة التدريسية والطالبات لتذاع في أوقاتها، ولعلهم فعلوا •

وهكذا انقضت سحابة ذلك اليوم وأوينا إلى الفندق منتظرين انجياب ظلمته ليطل علينا فجره نستقبل به يوماً جديداً وندعوا الله تعالى أن يوفقنا إلى المزيد من خيره ، ونعد العدة لاتمام مابقي من أعمال نستعد للسفر عائدين • فودعنا ذلك اليوم وقد تنوعت المتعة فيه بنعم الله تجمله قطرات السماء تفيض بالماء ، تناوب سحائبها بما أودع الله فيها من خير للانسان في نفسه وفيما حوله وما سخره له سبحانه رحمة وفضلاً يعود عليه خيراً من كل لون • فارتوينا ألواناً من كل جانب يملأ كيان الانسان ويؤنسه ، تؤكد طاعة الله ويعين عليها وندعوا إليها زيارة شاكرة وعبادة عارفة •

فأصبحنا في يومنا التالي الخميس ٢٣ ربيع النبوي (١٩٧٨/٣/٢ م) نتهيأ ونرتب أمورنا أو نحزم حقائبنا أو نمد خطواتنا متحررين من الحافلة نحو أماكن

ومحلات ، بعدت أو قربت ، نمتار منها ونملأ مايكون قد بقي من الحقائب من زوايا وخبايا خاوية لتغص بالحاجات فتملأ وتختفي، والرغبة في ذلك لا تنتهي ولا على حاجة أو تعيين وكأن القوم أصيبوا بالنهم أو كان كامناً فظهر ، حتى اقترب وقت الظهر فاذا بحافلة إلى جوار الفندق عرفنا فيما بعد أن السفارة أرسلتها لتنقلنا إلى مكان الدعوة فقصدناها وتحركت نحو دار السفير •

اخترقت الحافلة شوارع مدريد إلى شمالها مجتازين جامعة مدريد ومدينتها إلى ضاحية ضمت دور السفراء في منطقة جميلة للدبلوماسيين وكانت الدار جديدة في مبناها وسكناها ، وربما كنا أول ضيوف تضمهم تلك الدار كما قد نكون أول وفد يزور دار السفارة قبل هذه الدار ، عمرهما الله تعالى وأمثالهما بالخير والطاعة والبر والتقوى •

وصلنا دار السفير فاستقبلنا بكرم وترحيب واحسان ضيافة • وبـدا الكرم النفسي أكبر من الكرم الحسي رغم وفرته من السفير واسرته ومن كان هناك مـن موظفي السفارة وضيوفها ، فاستمتعنا بالجو الجميل والضيافة الكريمة والاحاديث الناعمة • وكانت هذه متعة ، بجانب ما أبل الاشتهـاء لاكلات خليجية روعيت في الاعداد ، ثم قضى من قضى وقتهـا حـق الله صـلاة وتسبيحاً وشكراً على نعمه ــ سبحانه ــ التي لاتحصى • واستمرت الجلسة لساعـات ، فودعنـاهم شاكرين وداعين بالتوفيق •

التحقت بنا حافلتنا الاخرى المرافقة الخاصة • فتركنا دار السفير في جو خفيف المطر جميل نحو الحافلتين ، فمن أراد العودة إلى الفندق ركب الحافلة المضيفة ومن أراد الجولة في مدريد أخذ حافلتنا •

وكانت جولة قصد منها زيارة القصر الملكي الذي يقع غربي مدريد قرب ميدان اسبانيا • ويقوم القصر فوق أرضٍ مرتفعة تطل من علٍ على ما حولها ومشرفة على نهر منثنارس أحد نهيرات التاجه • يعتبر هذا القصر من أفخم نظرائه الأوربية وهو أشبه بمتحف يضم العديد من الصور والقطع الاثرية كما يستعمل أحياناً لاستقبال الوفود الرسمية ، وفعلاً رأينا ذلك خلال إحدى جولاتنا المدريدية •

بني هذا القصر أيام الملك كارلوس الثالث أواسط الثامن عشر فوق موضع القلعة الاسلامية أيام مجريط الاندلس • وأمام مبنى القصر ميدان كبير ذو حديقة وأشجار يسمى الميدان المشرقي وقد يسمى القصر به •

وغير بعيد عن هذا القصر تقوم « كنيسة المدينة » التي بنيت فوق موقع مسجد مجريط الجامع الذي هدم لدى سقوطها سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) لتبنى هذه الكنيسة بدله فوقه • وكان لديهم واسع المجال لبناء مايريدون من الكنائس في غير هذا المكان المتعمد للاضطهاد الصليبي ، وليس في الامكان أسوأ مما كان ، إنها الصليبية هكذا • وهو أسلوب مألوف في سياسة اسبانيا النصرانية في الاندلس ــ وغيرها ــ ويشير إلى نوع المعاملة الاضطهادية التي يلقاها المسلمون بعد سقوط مدينتهم • كل ذلك رغم حسن المعاملة التي كان ينعم بها هؤلاء من المسلمين ابتداءً والمحافظة على أمورهم وحرية عبادتهم والوفاء بالعهود وعدم التدخل في شؤونهم واحترامهم وابقاء كنائسهم ، وكل ينفق مما عنده •

وبعد انتهاء الزيارة عاد الجميع إلى الفندق أو اتجه إلى السوق ، كل حسب هواه • وانقضت بقية ذلك اليوم قبل الرحيل ، حيث جرى إعداد عدة السفر وتنظيم الامتعة ، ما كان قد احضرناه وهي قليلة خفيفة أو ما اشتريناه وهو أكثر فغدت كثيرة ثقيلة • وبتنا ليلتنا الأخيرة هناك ننتظر صباحها ليوم الجمعة ٢٤ ربيع النبوي ١٣٩٨ هـ (٣/٣/١٩٧٨ م) • وكان جميلاً ومنعشاً ككثير من أيام مدريد والأندلس على مدار السنة تقريباً ، وزاد ذلك اليوم جمالاً المطر خفيف يدغدغ الأرض وما فوقها بالعمران نعمة اخرى من الله ومنة لم يحرم أحداً من نعمه ، ونعم الله تعالى على بني الانسان كبيرة كثيرة وأكبرها طراً الاسلام الذي أراده جل جلاله شرعة لأهل الأرض في كل عصر ومصر ، لتصح لهم خلافة الله فيها • ولقد أنزل الله سبحانه القرآن الكريم الذي « يهدي للتي هي أقوم » فعلى الانسان أن يشكر ربه ويبحث عن هداه ويأخذ به ويرجو رضاه ويعبده كما أراد • يفوز بمحبته وجنته وبنعمة العبودية لـه •

تهيأنا واستكملنا الاستعدادات للرحيل وأعددنا الحقائب ، وكانت الحافلة بالانتظار ، فسبقتنا إليها الحقائب مليئة ثقيلة وكثيرة ، ثم اتجهنا إليها فاحتوتنا للمرة الأخيرة من تلك الرحلة . فانطلقت نحو مطار مدريد ونحن نلقي نظرات الوداع هنا وهناك . وبلغنا المطار وتتابعنا إلى قاعة المغادرين وبصحبتنا الدليلة وسائق الحافلة الذي استقبلنا بها منذ وصولنا ولم تفارقنا حتى الوداع هنا . فأنزلت الحقائب لتأخذ طريقها إلى الميزان ، واتخذت الاجراءات ويسر الله لنا الأمور والحمد لله رب العالمين. وكان هناك بعض موظفي سفارة دولة الامارات وعمل الجميع على انجاز المعاملات والاجراءات . وتم ـ بفضل الله الكريم ـ التغلب على كل صعوبة ، واتجهنا نحو الطائرة مودعين الجميع شاكرين لهم اهتمامهم وداعين لهم بالتوفيق والسلام وحسن الجزاء من الله تعالى وللجميع .

كان المطر يشتد ونحن نقترب من الطائرة وصعدناها واستلقينا في مقاعدها ننظر إلى امتداد البصر من مدريد نظرة وداع ، ليست الأخيرة إن شاء الله تعالى . فوداعاً يا مدريد ووداعاً أيها الأندلس الحبيب وإلى اللقاء . فاقلعت الطائرة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً (الثانية بعد الظهر بتوقيت الامارات) وهكذا رحلنا عنها كما يرحل كل حي هنا عن هذه الدنيا إلى الدار الاخرى ، والسعيد من تزود فيها ومنها لأخراه « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب » .

وصلنا مطار أبو ظبي حوالي الواحدة من صباح السبت ٢٥ ربيع النبوي ١٣٩٨هـ (١٩٧٨/٣/٤م) وتوجهنا إلى مدينة العين فوصلناها حوالي الرابعة صباحاً.

فكانت هذه الرحلة رحلة العبر والفكر أو لربما للبعض رحلة العمر . فالحمد لله رب العالمين على ما أنعم وأكرم وهدانا للتي هي أقوم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

للمؤلّف

١ ــ تحقيق ودراسة لسفر من كتاب **المقتبس في اخبار بلد الأندلس** للمؤرخ الكبير ابن حيّان القرطبي (٣٧٧ ــ ٤٦٩ هـ) : بيروت ، ١٩٦٥ يتحدث هـذا الجزء من **المقتبس** عن خمس سنوات (٣٦٠ ــ ٣٦٤ هـ = ٩٧٠ ــ ٩٧٤ م) من أيام الحكَم الثاني ، المستنصر بالله (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ = ٩٦١ ــ ٩٧٦ م).

Critcial edition of « Al-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS », by Ibn Hayyan (d. 469 = 1076) , Beirut, 1965 . This volume , of « AL-MUQTABIS » , descusses almost five years (360 - 4=970 - 4) of the Riegn of al - Hakam II (350 - 66 = 961 - 76) .

٢ ــ تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا مـن كتـاب **المسالك والممالك** للجغرافي الأندلسي الكبير أبي عُبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ٤٠٥ ــ ٤٨٧ هـ) : ظهر هذا النص تحت عنوان **جغرافية الأندلس واوربا** ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) .

Critical edition of « THE GEOGRAPHY OF AL - ANDALUS AND EUROPE » , from the Book « AL - MASALIK WAL - MAMALIK » by Abu Ubayad al - Bakri (d. 487 = 1094) .

٣ ــ **أندلسيات** : المجموعـة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) ؛ المجموعـة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . وتضم بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي .

٤ ــ **نظرات في دراسة التاريـخ الاسـلامي** : الطبعة الأولى ، بـيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ؛ الطبعـة الثانية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) ؛ الطبعـة الثالثة : دمشق ، ١٣٩٩ هـ .

٥ ــ **الحضارة الاسلامية في الأندلس** : بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٦ ـ **تاريخ الموسيقى الأندلسية** : بيروت ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٧ ـ الدكتوراه (بالانجليزية) عن : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس واوربا الغربية حتى نهاية الخلافة » :

ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, 1390 (1970)

٨ ـ **التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة** : ٩٢ ـ ٨٩٧ هـ (٧١١ ـ ١٤٩٢ م) ، دمشق ، ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٩ ـ **جوانب من الحضارة الاسلامية** : دمشق ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

١٠ ـ **مع الأندلس .. لقاء ودعاء** : دمشق ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) .

١١ ـ بحث بالانجليزية :

« Intemarriage between Andalusia and northern Spain in the Umayyad period » , THE ISLAMIC QUARTERLY, London,Vol. XI, Nos, 1 - 2, 1387 (1966) .

نشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١٢ ـ نقد (Review) بالانجليزية ، لكتاب

AHISTORY OF ISLAMIC SPAIN, W. Montgomery Watt (Islamic Survy 4) , EUP, 1965. In « THE ISLAMIC QUARTERLY » Vol. X, Nos, 3 - 4, 1386 (1966) .

نشر (النقد) باللغة العربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١٣ ـ بحث بالانجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة الأندلسي (ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي) :

« At - Turtushi The Andalusian traveller, and his Meeting with POpe John XII, » THE ISLAMIC QUARTERLY, Vol XI, Nos 3 - 4, 1387 (1967) .

نشر باللغة الإيطالية في مجلة :

RIVISTA STORICA ITALIANA, NAPOLI, ANNO LXXIX FASC. 1, 1967, pp. 164 - 73.

١٤ ـ بحث « القضاء ودراسته في الأندلس » : نشـر في العدد الأول (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) من **مجلة كلية الإمام الأعظم** (بغداد) .

١٥ ـ بحث « الكتب والمكتبات في الأندلس » : نشـر في العدد الرابع (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) من **مجلة كلية الدراسات الاسلامية** (بغداد) .

١٦ ـ بحث « حـول التراث والحضارة » : نشـر في العدد الخامس (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) من **مجلة كلية الدراسات الإسلامية (بغداد)** .

١٧ ـ بحث « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابـع الهجري » : تحت النشر في **صحيفة معهد الدراسات الإسلاميـة في مدريد** .

١٨ ـ بحث « ابن زيدون السفير الوسيط » ، كتب لـ « الاحتفال الألفي لولادة ابن زيـدون » (٣٩٣ ـ ٤٦٣ هـ) : في الرباط (المغـرب) في ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٥ . وتقوم بنشره وزارة الدولـة المكلفة بالشـؤون الثقافية (المغرب) .



اقـرا للمؤلف

التاريخ الأندلسي

من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة

احتوى هذا الكتاب على تاريخ المسلمين كله في الأندلس طيلة قرونه الثمانية ؛ وذلك بإيجاز وتركيز ، وجعل المؤلف نصب عينيـه أمرين : التاريخ ، والعبرة ، وأحسن وأجاد فيهما .

وقد رجع المؤلف إلى المصادر الأمهات وإلى مكتوبات العصر الحاضر ، واستفاد منها جميعها ، فجاء كتابه مرجعاً مفيداً لكل من يدرس تاريخ هذا البلد ، ولكل أساتذة وطلاب التاريخ في الجامعات . وجاء مزوداً بخرائط منوعة وجداول متعددة ، تكمل الاستفادة منه وتعمقها .